1re. Année No. 15
Mardi 15-8-1933

بدل الاشـتراك
٣٠ عن سنة كاملة
٢٠ عن ستة شهور
٦٠ عن سنة فى الخارج
١ ثمن العدد الواحد
....
تصـدر مؤقتاً
فى أول كل شهر ونصفه

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
....
الإدارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون ٤٢٩٩٢

العـدد الخامس عشر « القاهرة فى يوم الثلاثاء ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٣٥٢ — ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٣ » السنة الأولى

بين النيل والاكروبول

الى الشباب أسوق الحديث

رحلت إلى بعض بلاد الغرب ثم إلى بعض أمم الشرق فلم اجد شعباً كهذا الشعب هان وجودُه على نفسه، وانطمس تاريخه فى ذهنه، فأعطى الضيم عن يد وهو صابر!!

أسرف فى اللين حتى رُمِى بالجبن، وأمعن فى التسامح حتى وُصف بالبلادة، وأفرط فى التواضع حتى نسى الأنفَة، وبالغ فى إكرام الغريب حتى أصبح هو الغريب!!

فليت شعرى يا ابن العرب أو ياسليل الفراعين من أين داهمتك هذه الذلة؟!

نسب يزحم النجوم، وحسب يَطُول الدهر، وماض كالشمس نفذ الى كل أرض وسطع فى كل أفق، وواد كرفرف الخلد زخر بالغنى وفاض بالنعيم! فكيف لا يرفع رأسك هذا النسب، ولا ينصب صدرك هذا الماضى؟!

مالك تمشى فى أرضك خافت الصوت، خافض الجناح، ضارعَ الجنب، كأن النيل يجرى لغيرك، وكأنما الآثار تتحدث إلى سواك؟!

لقد أصبحت فى بلدك المنكود تحيا حياة الجسم كما يحيا الاجير والخادم، اما حياة الروح التى ينبض فيها القلب بعزة القومية وصلف الوطنية، فقد أماتها فيك الوباء الوافد من كل مكان!

إن اخوانك فى سورية لا يحبون الغريب الا صيفا، وان إخوانك فى العراق لا يكرمون الاجنبى الا ضيفا،

فهرس العـدد

أما الدود الذى يمتص الدم ويقذى العيون ويغثى النفوس فلا يجد مغذاه ومرواه الا على النيل !! وليت الذى قاسمنا أنعُمَ الوادى الحبيب يذكر فضيلة الاحسان، ويشكر عطف الانسان على الانسان !! انما يتمتع بخيرنا تمتُّع الغازى الفاتح، فى يمناه سيفه، وفى يسراه قانونه، فاذا عاملناه احتقرَنا، واذا عاتبناه انتهرَنا، واذا ضج المغبون، أو صاح المسروق، أو صرخ الجائع، ضربه (الخواجة) ضربته، ثم استعدى عليه دولته!!

فى أى بلد من بلاد العالم اليوم يأتى محام أجنبى، ليدافع عن مجرم من جنسه أجرم على هذا البلد، فيجد له قضاء فى قلب قضاء هذا البلد، وقانوناً بجانب قانون هذا البلد، وقوة فوق قوة هذا البلد، ثم يقوم بين يدى قضاة من جنسه فيقول فى بلاغة ديمستين وحماسة مَنْ، لا أدرى:

« أظهروا أيها السادة أنكم قُضاة تنشقون هواء الأكروبول، وانكم لا تخوضون فى ماء النيل العكر »

معك الحق كله يامِتْر باباكوس! لقد تركت أثينا فى اليونان ثم عبرت البحر فوجدت أثينا فى مصر!! فالفنادق للروم، والمطاعم للروم، والمقاهى للروم، والمواخير للروم، ودور السينما للروم، وقاضيك من الروم، وجانيك من الروم، وبقالك من الروم، وحلاقك من الروم، وخادمك من الروم! واذا طلبت الماء، أو أردت الكهرباء، أو ركبت الترام، أو دخلت البنك، أو قصدت المتجر، وجدت كل ذلك فى أيدى أقوام سحنتهم غير مصرية، ولغتهم غير عربية!! فاذا سألت (مخالى) عن المصريين قال لك أنهم أجَراء عند (خريمى) فى المزرعة، أو سكارى عند (يني) فى البار!!

معك الحق كله يامتر باباكوس ان تهين شعبا يسمع إهانته فى كل يوم وفى كل مكان فيغضى ثم يمضى! وأى إهانة آلم وأشنع من (الامتيازات) وهى طعن فى انسانيته وقدح فى كفايته وتجريح لعدله!! ولكن الحق يبرأ منك حين تقول وأنت وريث ارسطو ومِدْرَهُ أثينا إنك لم تقصد بهذه الجملة إهانة مصر، وانما هى: (عبارة من عبارات البلاغة التى يستعملها المتكلم عادة) فلسنا من البلاهة بحيث يخدعنا عن جد الجريمة هزل الاعتذار!!

رحم الله أستاذنا المهدى! لقد كان يرى الرجل المتمدن يرمى الرجل المتمدن بالكلمة العوراء يندى لها جبينهُ، ويغلى منها دمهُ، فما هو إلا أن يقول الشاتم المتمدن للمشتوم المتمدن: (سحبتُها) حتى يجف عرق الجبين، ويكف غليان الدم! فيقول الاستاذ بلهجته العربية:

«عجيب!! كلمة قيلت كيف تُسْحَب! ولطمة أصابت كيف تُسترد؟!»

لا نريد من شبابنا أن يدفعوا البغى بالبغى، وإنما نريد منهم أن يُفهموا الواغلين أن كدَر النيل ليس من أهله، وأن الطريق الذى يَسفى عليه الغبار والاقذار هو الطريق الذى فتحه لهم الاقتصاد المستعمر، فاذا ملكناه ونظفناه عادت الى نيلنا نقاوته، وإلى شعبنا كرامته

ليس على الأجنبى من حرج فى أن يزاحمك فى بلدك، فانما جهاد الدنيا زحمة، ليس فيها رحمة، وهو حين ينافسك ينافسك فى حمى القانون، ويغالبك فى حدود الطبيعة، وانما الحرج كله عليك اذا ظللت تشترى وهو يبيع، وتغرم وهو يغنم!!

نضَّر الله وجوه الشباب العاملين!! لقد أخذوا يَجلون عن وجه مصر الجميل غَبْرة القرون وذلة الأحداث وإهانة الدخيل! نزلوا ميدان الاقتصاد جنوداً متطوعين، وعمالا متواضعين، فعرفوا أين تكون المعركة الفاصلة بين الاستعباد والحرية، وبين الاستعمار والحق، وشقوا الطريق القاصد الى إنقاذ مصر من احتلال دولى شديد الخطر قبيح الأثر لا تكائه على العدل واعتماده على القانون

إن (عيد الوطن الاقتصادى) و(مشروع القرى) و(تعاون الشباب) و(تعاون الطلبة) و(جماعة تمصير مصر) وشركات الدخان والألبان والاعلان والجزارة والمقاهى . . . فتح مبين فى جهاد مصر الفتاة، وإن تَحلُّلَ الشباب المثقفين من ربقة التقاليد وإسار العرف فلا يرون غضاضة فى أن يقيموا المشارب والقهوات فى مولد النبى ومولد الحسين يكونون فيها الطهاة والباعة والنُّدُل والمديرين، لهو تحلل الحاضر الطموح الناهض، من قيود الماضى القنوع العاجز. وليس على أولئك الشيوخ الذين مكنوا بجمودهم وقعودهم للأجنبى فطغى بيده، وبغى بلسانه، الا أن يطووا معهم هذه الصفحة المخزية من تاريخ مصر، ويتركوا الشباب يجدد ما بلى، ويدعم ماوهى، ويسد ماخلّ

إن شطط المبشرين قد انقلب الى تبشير بالاسلام ودعاية الى المؤسسات الخيرية، فهل تنقلب سفاهة (الممتازين) الى اعزاز القومية المصرية، وتحقيق الأمانى الوطنية؟؟

احمد حسن الزيات

لغو الصيف

للدكتور طه حسين

أيهما خير يا آنسة ؛ أن نفترق الآن لنلتقي غدا ، أم أن نظل كما نحن رفيقين فى السفر والاقامة ؟ قالت : بل أن نفترق لنلتقي بعد شهرين فى القاهرة أو بعد شهر فى باريس . وحسبنا ان قد أقمنا معاً أسبوعاً كاملا فى هذه المدينة من مدن البحر نلتقي اذا أصبحنا ، ونلتقي اذا أمسينا ولا يفرق بيننا إلا الليل ، قال : فانك اذاً قد سئمت هذا اللقاء وطال عليك أمده ، وأخذت تودين لو فرقت بيننا النوى دهرا طويلا أو قصيرا ! وما رأيك فى أنى بعيد كل البعد عن هذا السأم ، كاره كل الكره لهذا الفراق الذى تحبينه وتطمحين اليه ؟ قالت : لك أن تفهم رأيي كما أحببت ، وأن تقدره كما شئت ، وأن ترضى عنه أو تسخط عليه ، فمن المحقق أنى لم أره لك وانما رأيته لنفسى ، ومن المحقق أنى لم أعلنه اليك إلا وأنا محتملة لنتائجه عالمة بموقعه من نفسك وتأثيره فيها ، ولن يغير من رأيي ما تبدىء وما تعيد ، فقل لى : الى اللقاء ودعنى أهيء أمرى فقد دنت ساعة السفر ، قال : ماشككت فى أن ساعة السفر قد دنت ، ولكن الذى أشك فيه هو أن دنو هذه الساعة يضطرنا الى أن نفترق ، فقد نستطيع أن نسافر معا كما أقمنا معا . قالت : فانى لا أريد . قال : ما رأيت كاليوم ظرفا ولا رفقا ولا حسن مودة للاصدقاء ، سنفترق يا آنسة مادمت حريصة على هذا الفراق فهل تأذنين فى أن أصحبك إلى القطار . قالت : ولا هذا فانى لا أحب هذا الوداع السريع البطيء فى وقت واحد . ولا أحب أن يفترق الناس لأن قوة غريبة عنهم تكرههم على أن يفترقوا فلنفترق منذ الآن واكتب إلى ، ولعلنا نستطيع أن نلتقي فى باريس . فان أعيانا ذلك ففى القاهرة متسع للقاء المتصل والحديث الطويل . ثم صافحته فى قوة وعلى وجهها ابتسام يشبه العبوس ، وفى وجهه عبوس يشبه الابتسام .

ولم يكد يقبل المساء حتى كانت ماضية فى قراءتها لا يصرفها عنها شيء ، كما كان قطارها السريع ماضياً فى سيره لا يقفه عنه شيء وكانت حركة الناس من حولها لا تسكن ، وحديث الناس من حولها لا ينقطع ، وأصوات الناس من حولها لا تهدأ . ولكن شيئا من ذلك لم يكن ليلهيها عن هذا الكتاب الذى غرقت فيه . حتى اذا انتهت بها القراءة إلى شيء من الجهد والاعياء ، ووضعت كتابها لتستريح ورفعت رأسها تجيل الطرف فيما حولها لم ير عها الا صديقها الأديب جالسا أمامها جلسة المتأدب الخاضع الذى ينتظر أن يفرغ سيده له ويلتفت اليه . فلما رأته لم تدهش ولم تنكر ، ولكنها أظهرت ضيقا به وغضبا عليه ، وقالت فى لهجة حازمة : أتعلم أنى أكره هذا النوع من اللعب ، وأنك توشك أن تغيظنى وتحفظنى وتصرفنى عنك ان مضيت فيه ؟ قال فى صوت خافت غير مطمئن : أعلم ذلك حق العلم وآلم له أشد الألم ، ولو استطعت أن أكون عند ما تحبين ماأثقلت عليك ، ولا ترددت فى طاعتك ، ولا تحولت عما يرضيك . ولكن ما رأيك فى أنى لا أحب أن أموت . قالت ولم تملك نفسها من ضحك غالبته فغلبها : لا تحب أن تموت ؟ قال نعم لا أحب أن أموت ، ألم تفهمى بعد ؟ قالت : ومتى رأيتنى أحل الالغاز ؟ قال : والغريب أنك قد عاشرت الفرنسيين فأطلت عشرتهم وأتقنت لغتهم وآدابهم الرفيعة والشعبية حتى كأنك واحدة منهم . فكيف يغيب عنك ما يتحدثون به كلما هموا برحيل أو فراق ، وهل تعلمين شعراً وجد عددا ضخما من الرواة ، تختلف طبقاتهم وتتفاوت منازلهم كهذا الشعر الذى ينشده الفرنسيون كلما هموا أن يفترقوا انما السفر ضرب من الموت بالقياس إلى المحبين ، قالت : وقد نسيت غضبها واطمأنت إلى طبعها ، وخرجت من التكلف ولاءمت بين حديثها ومظهرها ، وبين ما وجدت من الغبطة بلقائه الذى كانت ترجوه ، والذى كانت تغضب وتحزن لو لم تظفر به ، فانت إذاً تريد إلى هذا اللغو من الحديث . قال أنت تزعمين أنه لغو أما أنا فأراه الجد كل الجد ، والحق كل الحق . ولولا أن السفر ضرب من الموت لما كرهه المحبون ، ولا سخط عليه الشعراء ، ولا تغنوا آلامه وأحزانه . ولولا أن السفر ضرب من الموت حين يفرق بين الناس لما رأيتنى الآن فى هذا المكان بعد ان افترقنا على أن لا نلتقي حتى يمضى شهر او أكثر من شهر .

ولكنى فكرت بعد أن افترقنا ، فرأيت أنى ميت بالقياس الى كل الأصدقاء الذين تركتهم فى مصر ، مهمل بالقياس الى كل هؤلاء الناس الذين كانوا حولى فى نيس ، والذين سألقاهم فى باريس ، وأنى لا احتفظ من الحياة إلا بشعاع ضئيل ، هو هذا الذى أحسه حين أصحبك وأسمع لك وأتحدث اليك ، فشق على أن أجود بهذا الشعاع ، وأن أسلم نفسى للموت المطبق والاهمال المطاق شهراً وبعض شهر ، ولولا خوف الموت والضيق بالاهمال ما خرجت عن طاعتك ولا خالفت عن أمرك ، ولا عرضت نفسى لهذا الغضب اللاذع وهذه الثورة المهينة . قالت : فقد عدت إلى ذكر الغضب والثورة كأنك تريد أن أنكرهما أو أعتذر منهما أو أنبئك بأنى تكلفتهما تكلفا ، واصطنعتهما اصطناعا . قال :

لا تنكرى شيئا ولا تعتذرى من شيء ، فأنا معترف بأنى ملح ، وأنا معترف بأنى مثقل فى الالحاح ، ولكنك تعودت احتمالا لهـذا الثقل . وتجاوزا عن هـذا الالحاح ، فدعى حديثهما وحديث الغضب والثورة ، وحدثينى عن هذا الكتاب الذى لم تكادى تقبلين عليه حتى ألهاك عن كل شيء ، وصرفك حتى عن هذه المناظر البديعة الخلابة التى تعرضها عليك الطبيعة عرضاً سريعاً أثناء سير القطار . قالت : هذا كتاب تعجب إن عرفت أنى أقرأه للمرة الخامسة ، فأنا لا أعرف كتابا أهون ولا أيسر ولا أمتع ولا ألذ من هذا الكتاب أثناء السفر الطويل ، أو حين يلح على الحزن الثقيل . هذا كتاب من كتب كورتلين ، قال : هو كتاب « قطار الساعة الثامنة والدقيقة السابعة والاربعين » قالت : هو ذاك . قال : فانى لم أقرأه خمس مرات ، ولكنى قرأته ثلاثا ، ولولا أنى علمت أنى سأصحبك فى القطار لقرأته للمرة الرابعة ! فانا مثلك معجب بهذا الكتاب إعجابا لاحد له ، والغريب أنى لا أدرى بماذا أعجب من هذا الكتاب ! بمعانيه أم بالفاظه أم بأسلوبه ، أم بهذه الصور الرائعة التى يعرضها علينا فى غير انقطاع ؟ أم بهذا كله مما أعرفه ، وما أحسه دون أن أعرفه ، فهذا الكتاب عندى آية من آيات الأدب الفرنسى . قالت : وعند كثير من الفرنسيين أيضا ، وإذا لم تكذبنى الذاكرة فقد كان أناتول فرانس مشغوفا به شغفاً عظيما ، لست أدرى أكان يعده بين آيات الأدب أم لا . وانى لأرجو أنه لم يضعه بين هذه الآيات فقد كان أناتول فرانس يضيق بآيات البيان ، ويرى أنها ثقيلة مملة ، وليس فى هذا الكتاب شيء من الثقل ولا الاملال . قال : ومع ذلك فان فى هذا الكتاب ألفاظا لا تكاد تحصى وجملا لا يكاد يبلغها العد ، وكلها خارج على النحو الفرنسى ، مخالف لأساليب البيان المألوف . قالت : فهذا مظهر من مظاهر الجمال فى هذا الكتاب ، ومصدر من مصادر الاعجاب به ، وسبب من هذه الأسباب التى تضطرنا إلى مراجعة النظر فيه . وما رأيك لو أن كورتلين أنطق أبطاله بهذه اللغة الفرنسية الفصحى ، وأجرى على ألسنتهم هذه الجمل الأدبية الرائعة التى نجدها فى كتب كورتلين نفسه وفى كتب غيره من الأدباء ؟ . اذاً لما وجدت فى الكتاب لذة كهذه اللذة التى أجدها الآن ، ولعلى أن أعجز عن المضى فى قراءته إلى آخره فضلا عن أن أقرأه مرات . إن للغة الفصحى خطرها وقيمتها ، وهى مقياس البيان وظرف الادب ، ولكنها قد تسخف وتسمج اذا جرى بها لسان هذا الجندى الذى اتخذه كورتلين بطلا لقصته . قال : هذا حق ومهما أنس فلا أستطيع أن أنسى هذه الجملة الطريفة التى يرددها جندى كورتلين كلما وقف موقف الحرج أمام الكابتن :

Mon capitaine j'va vous dire une bonne chose.

فلولا هذه اللحنة الظريفة الشائعة ، التى تجرى بها ألسنة العامة من الفرنسيين والتى أذاعها كورتلين ، حتى تفكهت بها الخاصة لما كان لهذه الجملة موقع فى النفس حسن ، ولا منزل من القلب عجيب . قالت : وكل كلام الجندى وكلام رفاقه ظريف محبب إلى النفوس ، لأن مافيه من اللحن والتواء الأسلوب يصور روح الشعب كما هى صريحة مستقيمة لا غموض فيها ولا التواء . قال فأنت إذاً من أصدقاء اللغة العامية وأنصارها ، وماذا تصنعين لو عرف أعلام البيان فى مصر عنك هذا الرأى ؟ . قالت : لا أصنع شيئا فليس يعنينى أن يعرفنى أو ينكرنى أعلام البيان فى مصر أو فى غير مصر . وما تعودت قط أن أرى الرأى فاسأل نفسى عن حظه من رضى الناس أو غضبهم . قال : قد علمت ذلك حق العلم وجربته حق التجربة ، ولم تمض ساعات على هذه التجربة اللذيذة الاليمة معا . ألست قد زعمت لى ؟ قالت : لم أزعم لك شيئا ! فلا تعبث ولا تفسد علينا بهذا الاستطراد مانحن فيه من الحديث لست من أصدقاء اللغة العامية ، ولكنى لست من أعدائها . وما أذكر أنى كتبت شيئا باللغة العامية ، وما أظن أنى سأكتب بها شيئا ؛ لأنى لا أحب ذلك ، ولو أحببته ماقدرت عليه . ولست أرضى أن تصبح اللغة العامية لغة البيان الأدبى ، ولا أعطف على كاتب يتعمد الكتابة بها ويتخذها ترجمانا لما يريد أن يعرضه من الخواطر والآراء ، ولكنى على هذا كله لا أستطيع أن أمحو هذه اللغة ، ولا أستطيع أن أنكر ان لها جمالا تنفرد به أحيانا وتعجز عنه اللغة الفصحى . ولا أستطيع أن أمحوها من قلوب الأشخاص الشعبيين وأضع مكانها اللغة الفصحى ، وأوفق مع ذلك الى تصوير هؤلاء الأشخاص الشعبيين تصويرا صادقا كل الصدق ، جيداً كل الجودة ، متقنا كل الاتقان . قال وهو يبتسم ابتسامة ملؤها المكر والخداع : ألا تعجبين أن ينتهى بنا الحديث عن كورتلين الى الحديث عن توفيق الحكيم ؟ قالت : ومن توفيق الحكيم ؟ ماسمعت به قبل اليوم ! . قال : فأنت اذاً من أهل الكهف . قالت : وأى عجب فى أن أكون من أهل الكهف ، ومتى زعمت لك انى أعرف الناس جميعا أو أقرأ للناس جميعا ؟ ! . قال فان أهل الكهف عنوان قصة لتوفيق الحكيم هذا الذى لم تعرفيه ولم تسمعى به ، وأؤكد لك أنى أكره لك هذا الجهل . فتوفيق الحكيم شاب خليق أن يعرف ، ومن العيب كل العيب ان يجهله أديب شرقى . ولكنك قد أقررت على نفسك بأنك من أهل الكهف فلا لوم ولا تثريب . قالت : قد أقررت وأنا خليقة أن ألام فأنبئنى عن توفيق الحكيم ، وكيف انتهينا من حديث

« البقية على صفحة ٤٠ »

الاشعاع

للأستاذ احمد أمين

كتب أخي الدكتور احمد زكي فى مجلة الرسالة مقالا ممتعا فى الأشعاع فى « باب العلوم » تكلم فيه عن اشعاع الشمعة والنجوم والشمس والأشعاع اللاسلكى وموجات الضوء واختلافها ، فأوحت مقالته الىّ معانى فى الأشعاع النفسى .

ان للنفوس والعقول اشعاعات لا تقل جمالا عن اشعاعات النجوم والكواكب ، نشعر بها وقد لا نستطيع التعبير عنها ، وهى أشد غموضا وتعقدا من الأشعاع الحسى ، وهى مختلفة أكثر من الاختلاف بين أشعة الألوان من حمراء وبنفسجية وتحت الحمراء وفوق البنفسجية وما بين ذلك ، وهى مختلفة فى القوة أشد من اختلاف المصابيح الكهربائية ، فلئن كانت قوة المصباح شمعة أو شمعتين أو ألفا أو ألفين فللنفوس قوى تختلف الى ما لا نهاية له صغرا وضآلة ، والى ما لا نهاية له عظمة وسناء

لعلك تشعر معى أنك ترى الرجل أو تحادثه أو تجالسه أو تسمع لمحاضرته فيشع عليك نوعا من الاشعاع يخالف الآخر قد تحسن التعبير عنه وقد لا تحسن ، فهذا يشع عليك سرورا وأريحية واطمئنانا ، وهذا يشع حزنا ووجدا ورقة وحنانا ، وذاك يشع هيبة وجلالا ووقارا ، وآخر يشع ضعة وذلة وهوانا ، وقد تحس من رجل بنوع من الأشعة تدركه وتستطعمه ، ولكنك لا تستطيع وصفه كما اذا أكلت كمثرى وتذوقتها وأردت أن تصف طعمها لمن لم يذقها ـ

فى الناس من اذا جالسته أشع عليك نورا أضاء لك ما بين جوانبك فأدركت نفسك ، وأشع نورا على العالم الذى حولك فتبينته وعرفت محاسنه ومساوئه ، وأدركت مكانك منه ، ورأيت كل شىء حولك صافيا بيّنا كأنك تنظر اليه من مصباح « المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار »

وفى الناس من يجالسك فتتلقى منه أشعة مظلمة تنقبض لها نفسك وتظلم جوانبها وتحس بميل الى الفرار منها ، وتتنفس الصعداء اذا بعدت عنها ونجوت من ظلامها وخرجت الى النور .

قديما قالوا : « ان درة عمر أهيب من سيف الحجاج » ذلك لأن عصا عمر كان معها يد عمر ومعها نفس عمر ، وهى تشع جلالا وعظمة وتخضع أمام أشعتها نفوس الجبابرة ، ويحس كل من وقعت عليه هذه الأشعة أنها صادرة من مستودع قوى دونه المصباح الكهربائى ، البالغ ما وصل اليه العلم من القوة ، وأما سيف الحجاج فمعه نفس الحجاج ، وهى تشع من غير شك قوة ، ولكنها قوة على الجسم لا على الروح ، قوة تخاف وتُرهب ولكن لا تحترم ولا تحب ، أشعة عمر كانت تطاع سرا وعلنا ، وأشعة الحجاج تطاع علنا لا سرا ، لذلك كفت عمر عصاه ، ولم يغن الحجاج سيفه

هذا الاشعاع هو السر فى انك تلقى عظيما فيملؤك أثرا ويملؤك قوة ، بهيئته ، بنبرات صوته ، بطريقة تعبيره ، بنظراته ، بأشاراته ، بهزة رأسه ، بحركة يديه ، فكان فى كل عمل من هذه الاعمال يوصل بينك وبينه تيارا كهربائيا قويا يهزك هزا عنيفا ، قد لا يحدثك طويلا ، وقد لا يكون لكلامه فى الواقع قيمة ذاتية ، ولكنه يوقظ نفسك ويحيى روحك ، وتبقى رنات كلماته فى الأذن الايام والليالى ، تعمل عملها فى هدوء حينا وعنف حينا ، وأصدُقك أنى لقيت عظيما من هذا النوع يوما فخرجت من عنده مملوءا حماسة وقوة وحياة ، حتى اذا بلغت الى محطة الترام لأركبه الى مسافة بعيدة عُفت الركوب لأنه يبعث على السكون ونفسى ثائرة ، والمشى فى شدة القيظ ظهرا أنسب لها وأكثر اتفاقا لما هى فيه من نشاط وقوة ـ اذا ذكرت الآن كلامه لم أجده ذا قيمة ، وكثير من الناس يتكلمونه ويتكلمون خيرا منه وأسمى وأعمق ، ولكن أحدا منهم ليس له هذا الاشعاع ولا قوته وعظمته . وحدثنى من أثق به أن الأستاذ جمال الدين الافغانى كان يرتطن عُجمة ، ولم يكن فصيح اللسان ولا سلس القول ، ولكن تجلس معه فيشعلك نارا دونها فصاحة الفصيح وبلاغة البليغ ، لانها النفس مستودع كهربائى قوى يصعق أحيانا ، ويضىء أحيانا ، ويدفع للحركة أحيانا

والرجل العظيم ، أو الكاتب الكبير ، أو المؤلف القدير ، يخرج ما ينتجه كتلة من الأشعة من جنس نفسه . ألست تقرأ المقالة أو الكتاب فيشع عليك معانى مختلفة ، منها الهادىء الرزين ، ومنها القوى المتين ، منها المضحك ، ومنها المبكى . منها الذى يأخذ بيدك

فيحلق بك فى السماء ، ومنها ما يدفعك الى الحضيض ، وآية هذا الاشعاع أنك تقرأ المقالة أو الكتاب فيبعث عندك من المعانى مالا تدل عليه الألفاظ، من طريق الحقيقة ولا المجاز ، بل ما بين السطور يشع كالسطور نفسها ، أولست ترى مقالة الاشعاع فى باب العلوم أشعّت علىّ معانى فى باب الادب ؟

ليسم هذا علماء النفس تداعى المعانى، أو ليسموه ايعازاً أو اقتراحاً أو ليسموه ماشاءوا ، فليست الا إشعاعات نفسية من جنس الاشعاعات التى يشعها الاشخاص فى كلامهم وحديثهم وحركاتهم فتلقف منها من المعانى مايقرب وما يبعد . وفى الأماكن كذلك أشعة مختلفة. فشارع عماد الدين يشع رغبة فى اللهو وميلا الى مسرات الحياة ، والمساجد تشع ميلا للعبادة وتمجيداً لله ، والبحر الجليل يشع عظمة وجلالا ، ونجوم السماء تشع حسناً وجمالا ، والبنك يشع حباً فى المال ، والجامعة تشع حباً فى العلم ، بل وكل بلد يشع نوعا من الاخلاق ، والا فلِمَ يذهب المصرى إلى انجلترا وقد اعتاد الفوضى فى حياته ومواعيده وصحوه ونومه ، فما هو الا أن يطأ أرضها حتى ينقلب خلقاً آخر دقيقاً فى نظامه ، دقيقا فى معيشته ؟ ويذهب المصرى الى المانيا فيكون فى بيئة علمية فيشرب من مشربهم ويسير سيرتهم ، فاذا عاد هذا وذاك الى مصر عادا سيرتهما الاولى ، ما هو الا الجو النفسى تلقى فيه أشعة نفسية مختلفة الاثر ، مختلفة الالوان

ومن قوانين هذا الاشعاع النفسى أنه فى كثير من الاحيان يعتمد على الفاعل والقابل معاً ، واعتماده على القابل أبين فيه من الاشعاع الحسى ، فاللون الابيض أبيض عند كل الناس ، والأحمر أحمر عند كل الناس، الا من أصيب بعمى اللون ، وليس كذلك الاشعاع النفسى ، فالخطيب يخطب واشعاعه يختلف باختلاف السامعين ، والكلمة قد تهدى ضالا وقد تضل هادياً ، كما يقول المثل الانجليزى « إن الليل الذى يغمض عين الدجاج يفتح عين الخفاش » وهذا هو السبب فى أنك تستخف روح انسان وغيرك يستثقله ، وتُعجب بقول متحدث ومن بجانبك يستسخفه ، وتتفتح نفسك لكتاب وغيرك ينقبض منه ، ماهذا الا لأن الاشعاع الواحد يختلف باختلاف من وقع عليه الشعاع ، وإن هناك تفاعلا قوياً بين مصدر الاشعاع وقابله ، ومن أجل هذا قد ترى لصا فى مسجد وعابدا فى حانة .

وموسى الذى رباه جبريل كافر

وموسى الذى رباه فرعون مرسل

والأرض يمطرها السحاب، فمنها جنان ناضرة، ومنها صحراء مجدبة قاحلة ، والنار تضىء للسارى فيهتدى وللفراش فيحترق

لقد أثبت العلم الاشعاع اللاسلكى وأصبحنا نسمع الآن من الراديو أصوات الموسيقى فى أوربا ، وسنسمعها من أمريكا ، وسنسمعها من أنحاء العالم ، ومعنى هذا أن فى جو مصر تموجات من أوربا وأمريكا وأنحاء العالم ، واذا كان هذا فى المادة فاشعاع النفوس أبعد مدى ، وأنفذ شعاعا ، وأسرع سيرا . واذا كان فى حجرتى امواج هوائية من مناحى العالم يظهرها الراديو ، فان فى حجرتى ملايين واكثر من الملايين من اشعاعات نفسية تشع من السماء ومن الارض ومن النفوس البشرية ، ومما لا يعلمه الا الله .

وما الفكرة تصدر عنى ، ولا الالهام أُلهم به فلست أعرف له مصدرا وليس يخضع لقوانين المنطق ولا نظريات الاستنتاج ، ولا الظواهر النفسية تتعاقب على فلا اعرف تعليلها من انقباض وانبساط ، وسمو وانحطاط ، وكدورة وصفاء ، وظلمة وضياء الا أثر من هذا الاشعاع

ان وراء هذا العالم المادى عالما روحانيا نفسيا أسنى وأبهى ، واذا كان للاجسام والحواس جو يحيط بها قد أمتلأ أشعة من نجوم وكواكب وشموع ومصابيح ، فللنفس جو يحيط بها اشتبكت فيه أشعة نفسية لاعداد لها . واذا كان للعين أفق يختلف باختلاف النظر قصرا وطولا ، فللنفوس أفق يختلف كذلك ، فبعضها ينفذ الى ماوراء الحجب ويستمد منه مايستخرج العجب ، وبعضها قصير المدى قريب المتناول . ولئن كانت قوانين الاشعاع الحسى لما يستكشف منها الا القليل ، فقوانين الاشعاع النفسى أشد تعقدا وأكثر التواء وغموضا ، والعاكفون على دراستها ، والموفقون لاستكشاف بعضها أقل وأندر . خضع كل الناس للاشعاع المادى ، وخضع كل الناس للاشعاع النفسى ، ولكن آمن بالأول كل الناس ، وما آمن بالثانى الا قليل .

هل تنبعث من عالم النفس شرارة قوية تضىء جوانب النفوس؟ وهل يبعث العالم النفسى موجة قوية تعم العالم وتهزه هزة عنيفة فينتبه من سباته ، ويهب علماؤه لتنظيم الحياة الروحية كما نظموا الحياة المادية ، ويتخصص علماء النفس لاستكشاف قوانين الاشعاع النفسى كما استكشف الماديون قوانين الاشعاع الحسى ، ثم ينتفعون وينفعون الناس كما انتفعوا بقوانين الضوء وما اليه، واذ ذاك يكون الناس أسعد حالا وأهدأ بالا وأكثر اطمئنانا ؟ من يدرى ! ! !

عمر بن عبـــد العزيز

٦٢ - ١٠١ ھ

للأستاذ عبد الحميد العبادى

تتمـــة

لم يكن عمر بن عبـد العزيز صـاحب حق فى الخلافة بمقتضى نظام الخلافة الاموية . ولـكن ذيوع فضله وسموه الروحى على سائر بنى أمية لفت اليه نظر أولى الحل والعقد من صلحاء الشام أمثال رجاء بن حيوة الـكندى وابن شـهاب الزهرى ومكحول الشامى ، فلما مرض سليمان بن عبد الملك بدابق مرضه الذى مات فيه ولم يكن له ولد بالغ يعهـــد اليه ، لم يزل به رجاء بن حيوة وأصحابه حتى كتب عهده لعمر بن عبدالعزيز ، ثم من بعده ليزيد ابن عبد الملك . ثم أمر فأخذت البيعة من بنى أميـة لمن سمى فى عهده دون أن يعينه لهم ، فلما قبض سـليمان وأعلن الأمر الى بنى أمية جددوا البيعة لعمر على كره منهم (٢٠ صفرسنة ٩٩)

شرع عمر فى تنفيذ برنامجه الاصلاحى منذ تم له الامر ، ولقد كان له من زهده ، ومناصرة العلماء له ، ومواتاة أهل بيته : زوجه فاطمة ، وابنه عبد الملك ، وأخيه سهل ، ومولاه مزاحم ، أقوى عون على ماأراد . بدأ عمر بمنصب الخلافة ممثلا فيه فجرده من كل مظاهر الأبهة ورده الى بساطته القديمة ؛ ولا أدل على ذلك من كلام ابن عبـــد الحـكم قال : « ولما دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز قربت اليه المراكب ؛ فقال ما هذه ؟ فقالوا مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول مايلى . فتركها وخرج يلتمس بغلته ؛ وقال يامزاحم ضم هذه الى بيت مال المسلمين . ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول مايلون ، فقال ماهذه ؟ فقالوا سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول مايلى ، قال يامزاحم ضم هذه الى أموال المسلمين ، ثم ركب بغلته وانصرف الى الفرش والوطاء الذى لم يجلس عليه احد قط ، يفرش للخلفاء أول مايلون. فجعل يدفع ذلك برجله حتى يفضى الى الحصير ، ثم قال يامزاحم ضم هـذه لأموال المسلمين .

«وبات عيال سليمان يفرغون الأدهان والطيب من هذه القارورة الى هذه القارورة ، ويلبسون مالم يلبس من الثياب حتى تتكسر. وكان الخليفة اذا مات فما لبس من الثياب أو مس من الطيب كان لولده ، ومالم يمس من الثياب ومالم يمس من الطيب فهو للخليفة بعده . فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان هذا لك وهذا لنا . قال ، وما هذا ، وما هـذا ؟ . . . . ما هذا لى ولا لسليمان ولا لكم ولـكن يا مزاحم ضم هذا الى بيت مال المسلمين . ففعل ، فتآمر الوزراء فيما بينهم فقالوا : أما المراكب والسرادقات والحجر والشوار والوطاء فليس فيه رجاء بعد ان كان منه فيه ما قد علمتم ، وبقيت خصلة وهى الجوارى نعرضهن ، فعسى ان يكون ماتريدون فيهن ، فان كان والا فلاطمع لـكم عنده . فأتى بالجوارى فعرضن عليه كأمثال الدمى . فلما نظر اليهن جعل يسألهن واحدة واحدة من أنت ؟ ولمن كنت؟ ومن بعثك ؟ فتخبره الجارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت فيأمر بردهن الى أهلهن ويحملهن الى بلادهن حتى فرغ منهن . فلما رأوا ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق »

ثم عمد الى النظام الأقليمى فأصلحه بأن عزل العمال المتشبعين بروح الحجاج ، عزل يزيد بن المهلب وحبسه فى مال كان للدولة فى ذمته ، ونفى نفرا من بنى عقيل أسرة الحجاج ، وولى عمالا جددا لم يحفل فى تخيرهم بعصبياتهم ولا بقدرتهم على جمع الأموال كما كانت الحال من قبل ، ولـكن بحسن سيرتهم وطهارة ذمتهم ، فكان من عماله عدى بن أرطاة الفزارى والى البصرة ، وعبد الحميد بن عبد الرحمن القرشى والى الـكوفة ، وعبد الرحمن بن نعيم القشيرى أمير خراسان ، وأبو بكر بن حزم أمير المدينة ، والسمح بن مالك الخولانى أمير الأندلس . وقد شد أزر الولاة بقضاة عدول ، فجعل الحسن البصرى على قضاء البصرة ، وعامرا الشعبى على قضاء الـكوفة كما جعل أبا الزناد كاتبا لأمير الـكوفة . ولم يكتف عمر بذلك فى أصلاح الأدارة الأقليمية بل تقدم الى العمال فى أمر العقوبات ألا يأمروا بقطع أوصلب قبل مراجعته هو أولا .

ثم ثنى عمر بالمسائل المالية فرد المظالم ، والمراد بالمظالم الأموال التى استولى عليها بنو أمية بغير حق ، وقد بدأ فى ذلك بنفسه فخرج لبيت المال عن كل مال لم يرض سبب تملكه ، حتى لم يبق له الا عقار يسير ببلاد العرب يغل عليه غلة يسيرة فوق عطائه الذى كان يبلغ مائتى دينار فى العام ، ثم أخذ يتتبع أموال بنى أمية يرد منها ماليس مشروع الملكية الى مستحقه ، وقد هاج ذلك سخط بنى أمية عليه ، وذهبوا ينعون عليه أخذه أموالهم باسم « المظالم » ؛ فلم تلن لغامزهم قناته ، وأراهم انه لايحجم عن بلوغ الغاية فى التنكيل بهم اذا اقتضى الأمر ذلك . يروى ابن عبد الحكم « ان رجلا من

أهل حمص أتاه يخاصم روح بن الوليد بن عبد الملك فى حوانيت بحمص كان أبوه الوليد أقطعه أياها ، فقال له عمر أردد عليهم حوانيتهم ؛ قال له روح : هذا معى بسجل الوليد . قال ومايغنى عنك سجل الوليد والحوانيت حوانيتهم ، قد قامت لهم البينة عليها ؟ خل لهم حوانيتهم ! فقام روح والحمصى منصرفين ، فتوعد روح الحمصى ، فرجع الحمصى الى عمر ، فقال هو والله متوعدى يا أمير المؤمنين ! فقال عمر لكعب بن حامد وهو على حرسه : أخرج الى روح يا كعب ، فان سلم اليه حوانيته فذلك ، وأن لم يفعل فأتنى برأسه ! فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له الذى أمر به عمر ، فخلع فؤاده . وخرج اليه كعب وقد سل من السيف شبرا ، فقال له : قم فخل له حوانيته ! قال نعم ! نعم ! وخلى له حوانيته »

وسار عمر فى إصلاح الشئون المالية على الأساس الشرعى ، فالأموال ينبغى أن تجبى من وجوهها وتنفق فى مصارفها الشرعية ، فمن أسلم من أهل الذمة سقطت عنه الجزية ، وقد اسقط الجزية فعلا عن كثير من موالى خراسان وأهل مصر، وقال مقالته المشهورة « إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » ونهى عن أن تصير الأرض الخراجية أرضا عشرية ابتداء من سنة ١٠٠ ه مع عدم التعرض للحقوق التى اكتسبت من قبل ، وألغى وظيفة مالية وظفها أخو الحجاج بن يوسف على اليمن فوق الزكاة ، ونهى العمال عن اقتضاء اكلاف مالية لم يرد بها الشرع ، وقد جمعها فى كتابه الى عامله على الكوفة فقال « ولاتحمل خرابا على عامر ، ولا عامرا على خراب ، أنظر الى الخراب فخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذ من العامر الا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا تأخذن فى الخراج . . . أجور الضرابين ، ولا هدية النيروز والمهرجان، ولا ثمن الصحف، ولا أجور الفيوج، ولا أجور البيوت، ولا دراهم النكاح، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض »

وقد وسع عدل عمر أهل الذمة من هذه الناحية كما وسع المسلمين ، فانه لما شكا اليه أهل نجرانية الكوفة تناقص عددهم الى العشر مع بقاء جزيتهم على حالها ، أمر برد جزيتهم الى العشر (البلاذرى ص ٦٧) كذلك رد جزية قبرس الى ما كانت عليه وقت الفتح وألغى ما زاده عليها عبد الملك بن مروان (البلاذرى ١٥٤) ويروى البلاذرى أيضا (ص ٤٢٢) انه « وفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا اليه ، أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب عمر الى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فان قضى بأخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الناجى ، فحكم بأخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء . فكره أهل سمرقند الحرب وأقروا المسلمين » وأبلغ من ذلك فى الدلالة على تحرى عمر العدل المطلق مارواه البلاذرى (ص ١٢٤) قال « قال ضمرة عن على بن أبى حملة ، خاصمنا عجم أهل دمشق فى كنيسة كان فلان قطعها لبنى نصر بدمشق ، فأخرجنا عمر منها وردها الى النصارى » ويروى البلاذرى أيضاً (ص ١٢٥) أن الوليد بن عبد الملك قد أدخل كنيسة يوحنا فى مسجد دمشق بغير رضا النصارى « فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكا النصارى اليه مافعل الوليد بهم فى كنيستهم ، فكتب الى عامله يأمره برد مازاده فى المسجد عليهم . فكره أهل دمشق ذلك وقالوا نهدم مسجدنا بعد أن أذنا فيه وصلينا ويرد بيعة ؟ وفيهم يومئذ سليمان ابن حبيب المحاربى وغيره من الفقهاء ، وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التى أخذت عنوة وصارت فى أيدى المسلمين ، على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرضوا بذلك وأعجبهم . فكتب به الى عمر فسره وأمضاه » ذلك موقف عمر بن عبد العزيز من أهل الذمة . أما ما ينسب اليه فى بعض كتب الفقه من تحامل عليهم ، وانه كتب الى عماله بعزلهم عن أعمال الدولة وأخذهم بألوان من الاضطهاد والتضييق عليهم (الخراج لابى يوسف ٧٣) فغير مؤتلف مع المستيقن من سيرته وعلى فرض صحته ، قد يكون نوعا من العقاب كان يعاقب به ذميو الحدود الاسلامية اذا هموا بمظاهرة العدو على المسلمين.

وكما كان عمر حريصا على جباية الاموال العامة من مصادرها الصحيحة . فقد كان كذلك حريصاً على أن تنفق فى مصارفها الشرعية . فمن حيث الفىء ، قد فرض لذرية المقاتلة وعيالهم عملا بسنة عمر بن الخطاب التى ترك بنو أمية العمل بها، وكتب الى عامله على الكوفة « وانظر من أراد من الذرية الحج فعجل له مائة يحج بها » . وفرض لعشرين ألفا من الموالى كانوا يغزون بخراسان بغير عطاء . وأظهر استعداده لان يحمل من بيت المال الى خراسان أموالا اذا كان خراجها لايفى بعطاء أهلها . ومن حيث أموال الزكاة، فكانت صدقات كل أقليم تقسم على عهده فى فقراء أهله، وقد قسم فى فقراء البصرة كل انسان ثلاثة دراهم وأعطى الزمنى خمسين خمسين ، وفرض للفقيرات من عوانس النساء ، وأعتق كثيراً من الرقاب . وقد كتب الى أحد عماله « ان اعمل خانات فى بلادك ، فمن مر بك من المسلمين فاقروهم يوما وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين . فان كان منقطعا به فقووه بما يصل به الى بلده » وأمر عماله بقضاء الديون عن الغارمين فكتب

اليه بعضهم « انا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس والأثاث فى بيته » فكتب عمر « لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى اليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث فى بيته ، فهو غارم فاقضوا عنه » ولما رأى عمر ان ليس للشعراء حق فى بيت المال جعل يجيزهم من عطائه وماله الخاص على قلته ، بالدراهم والدنانير المعدودة ، وقد أدرك الشعراء سبب تحرجه هذا فكانوا يقبلون منه العطاء اليسر أو الرد أحيانا بغير عطاء ، ولم يقصروا مع ذلك فى مدحه وقدره .

على ان أهم ميزة تميز عمر بن عبد العزيز من غيره من خلفاء الأسلام ورؤساء الدول طرا فيما نعلم انما هى رغبته الصادقة فى نشر لواء السلم، لا على بلاده وحدها ولكن على العالم بأسره . ولبيان ذلك نقول انه عمد فى داخل الدولة الأسلامية الى الأحزاب التى ناوأت الأمويين منذ قام ملكهم فترضاها وحملها على ما يريد من أيثار السلم والعافية . فالشيعة استجلب مودتهم بان منع سب علی بن أبى طالب على المنابر، وبأن رد على العلويين (فدك) التى رآها حقا قديما لهم قد غصبوه . والخوارج قد كبح جماحهم من طريق المجادلة بالحسنى والأقناع بالحجة والبرهان . فعندما ظهر شوذب الخارجى بأرض فارس أمر عمر ألا يقاتلوا حتى يسفكوا دما أو يفسدوا فى الأرض ، وكتب فى الوقت نفسه الى شوذب يطلب اليه المناظرة فى دعواه ، فأنفذ اليه الخارجى اثنين من فقهاء الخوارج ليناظراه ، وقد استطاع عمر أن يهدم كل حجة أورداها الا ما احتجا به عليه من أقراره يزيد بن عبد الملك على ولاية العهد مع ما يعلم من قبح سيرته ، وكان من وراء هذه المناظرة الطريفة ان انضم أحد الخارجيين الى عمر، وأما الآخر فعاد الى أصحابه وأنهى اليهم على مايظهر من سيرة الخليفة ما حملهم على السكون طوال عهده . وأما الموالى فقد قطع أسباب شكواهم، بأن أسقط الجزية كما رأينا عنهم ، وبأن فرض لمقاتلتهم عطاء . وأما العصبية القبلية من يمنية ومضرية وربعية فقد هدأ من حدتها ، بأن ردع الشعراء الذين كانوا يذكون نارها ، وبأن اختار ولاته بالنظر الى كفايتهم دون قبائلهم .

أما من حيث العلاقات الخارجية ، فقد سلك عمر بن عبد العزيز فى الأمر مسلكا بدعا لم يسبق اليه ولم يلحق فيه . ذلك أنه أقفل جميع الجيوش الأسلامية التى كانت تغزو وراء الحدود ، أقفل مسلمة ابن عبد الملك وكان مرابطا حول أسوار قسطنطينية وأعانه على القفول بأموال بعث بها اليه . وأقفل الغزاة بما وراء النهر على كره منهم كما أقفل من كانوا يغزون بالسند . على أن عمر لم يقف فى هذا الأمر الخطير عند هذا الحد، بل اتبع العدول عن سياسة العنف بالدعوة السلمية الى الأسلام . يروى البلاذرى انه لما أقفل الجيوش التى كانت تغزو بما وراء النهر كتب الى ملوك تلك الجهة من الترك يدعوهم الى الأسلام فأسلم بعضهم . ولما انتقض ملوك السند كتب اليهم يدعوهم الى الأسلام والطاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، قال البلاذرى « وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلم جيشبة والملوك وتسموا بأسماء العرب » كذلك كانت سياسته بازاء بربر المغرب الذين أشجوا الجيوش العربية زهاء ثمانين عاما . يقول البلاذرى « ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز (رضه) ولى المغرب اسمعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر مولى بنى مخزوم ، فسار أحسن سيرة ودعا البربر الى الأسلام ، وكتب اليهم عمر كتبا يدعوهم بعد الى ذلك ، فقرأها اسمعيل عليهم فى النواحى فغلب الأسلام على المغرب » ويذكر المؤرخ اليونانى تيوفان ان عمر كتب أيضا الى الأمبراطور البيزنطى يدعوه الى الأسلام

وكأن عمر بن عبد العزيز قد اطلع بلحظ الغيب على نظمنا الحديثة التى تفرض على الدولة الأشراف على التعليم والعمل على نشره بين أبنائها . فقد أراد تعليم الناس كما يؤخذ من قوله فى رواية ابن عبد الحكم « ان للاسلام حدودا وشرائع وسننا . . . . . فان أعش أعلمكموها وأحملكم عليها » بل لقد أخذ فى ذلك بالفعل فبعث يزيد بن أبى مالك الدمشقى والحارث بن محمد الأشعرى الى البادية ليفقها الناس وأجرى عليهما رزقا . ثم هو أول خليفة أمر بجمع أحاديث رسول الله وتدوينها . نقل السيوطى « ان عمر بن عبد العزيز كتب الى أبى بكر محمد بن حزم ان انظر ما كان من حديث رسول الله صلعم أو سنته فاكتبه ، فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء . وأخرج أبو نعيم فى تاريخ اصبهان عن عمر بن عبد العزيز انه كتب الى الآفاق ان أنظروا الى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه قال فى فتح البارى يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوى »

* * *

وبعد ، فماذا كان اثر تلك الجهود كلها ؟ لقد أدت الى الغاية التى كان يرمى اليها عمر . فقد طاف بالأمة الأسلامية اذ ذاك طائف الزهد والورع والتدين اقتداء بخليفتها ، والناس على دين ملوكهم كما قالوا قديما . يروى الطبرى « وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ مصانع وضياع ، وكان الناس يلتقون فى زمانه ، فأنما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع ، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجوارى ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ، ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تختم ؟ وما تصوم من الشهر ؟

وأصبح الناس وقد شملتهم نعمتا الرضا واليسر. قال «كثير» يخاطب عمر ويمدحه:

تكلمت بالحق المبين وانما … تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت موعودالذى قلت بالذى … فعلت فأمسى راضيا كل مسلم

وروى ابن عبد الحكم قال «قال يحيى بن سعيد: بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا، ولم نجد من يأخذها منى، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين»

نعم، لقد أغنى عمر الناس جميعا إلا نفسه وأهله. فلم ير ولى قوم أعف عن مالهم منه، ولم ير أهل بيت أصبر على الطعام الخشن والثوب المرقوع والبيت المتهدم منه ومن أهل بيته. ولقد أراح عمر الناس ولكنه أتعب نفسه، فكان حركة دائمة يعمل ليل نهار حتى ذهبت نضرته واحترق جسمه. وزاده هما فقدانه فى آجال متقاربة من عهده القصير أحبابه وأعوانه: ابنه عبد الملك، وأخاه سهلا، ومولاه مزاحما، فلم يقو جسمه على احتمال العمل والألم، فاسلم الروح بخناصرة فى ٢٥ رجب سنة ١٠١ ولما يعد التاسعة والثلاثين من عمره. وقد دفن بدير سمعان قريبا من دمشق.

لاندرى ماذا كان عمر صانعا لو مد له فى حياته؟ أغلب الظن انه كان يتلافى موضع الضعف من أصلاحه فيقيم هذا الاصلاح على أساس ثابت لايتزعزع بمجرد موته. ومهما يكن من شىء فقد فاز عمر بن عبد العزيز بتقدير أنصاره وخصومه على السواء. فهو عند أهل السنة مجدد المائة الأولى وآخر الخلفاء الراشدين، وقد رضى عنه العلويون وأهدى الى روحه فى أواخر القرن الرابع شاعرهم الشريف الرضى أبياتا من الشعر حارة جميلة، بل ان العباسيين عندما قامت دولتهم احترموا قبره فلم ينبشوه كما نبشوا قبور غيره من بنى أمية، على ان أبلغ من وصفه وأبنه رجل كان بحكم الظروف السياسية خصمه العنيد بل عدوه اللدود، ذلك ملك الروم أليون الثالث. أخرج ابن الجوزى عن محمد بن معبد قال «أرسل عمر بن عبد العزيز بأسارى من أسارى الروم ففادى بهم أسارى من المسلمين. قال فدخلت على ملك الروم يوما فاذا هو جالس على الأرض مكتئبا حزينا. فقلت ماشأن الملك؟ فقال أوماتدرى ماحدث؟ قلت ماحدث؟ قال مات الرجل الصالح! قلت من؟ قال عمر بن عبد العزيز، ثم قال ملك الروم: لأحسب انه لو كان أحد يحى الموتى بعد عيسى بن مريم لأحياهم عمر بن عبد العزيز. ثم قال انى لست أعجب من الراهب ان أغلق بابه ورفض الدنيا وترهب وتعبد، ولكنى أعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب»

أما نحن فنلحظ فيه خير نزعاته وأشرف عواطفه: نلحظ فيه حبه للسلام وسعيه فى توفيره فى العالم، فهو بحق داعية السلام فى القرن الأول الهجرى والثامن الميلادى، وكفى بذلك مفخرة فى الدنيا، وقربة فى الآخرة؟

أوراق مالية

فى القرن السابع الهجرى

للدكتور عبد الوهاب عزام

كيخاتو بن أباقا خان بن هلاكو خامس ملوك المغول المسمّين أيلخانية كان كما يقول مؤلف « حبيب السيَر » أسخى بنى هلاكو : كان يفيض جودا فى موائده ، ولا يقف به حد فى الاسراف واللهو .

وقد اختار لوزارته صدر الدين الزنجانى المعروف بصدرجهان . ولم يكن الوزير مخالفا مولاه فى التبذير . فخلت الخزائن، واشتدت الحاجة الى المال، وضاق بالملك الأمر، فبدا للوزير أن يأخذ عن أهل الصين سُنّة كانت معروفة عندهم فى ذلك العصر : هى التعامل بأوراق تغنى غناء الحجرين الكريمين أو المعدنين النفيسين : الذهب والفضة . وليس الفرق بين الورَق والورِق ذا خطر .

أمر الوزير بطبع أوراق للتعامل سميت « جاو » وأنشأ فى كل ناحية دارا لطبع الأوراق سميت « جاو خانه » وشرع قانونا يحتم على الناس الاقلال من تداول الذهب والفضة جهد الطاقة

وكانت الأوراق كما وصفها رشيد الدين الشيرازى فى تاريخه المعروف بتاريخ (وصّاف) والمؤرخون المعاصرون على هذا الشكل :

ورقة مستطيلة عليها كلمات صينية ، وفوقها باللغة العربية كلمة الاسلام : « لا إله الا الله محمد رسول الله » اتباعا للمألوف فى المسكوكات الاسلامية . وتحت هذا اسم الكاتب ودائرة، كُتب فيها قيمة الورقة. وكانت القيمة تختلف من نصف درهم الى عشرة دنانير . ومما كتب على هذه الأوراق هذه الكلمات الهائلة : « أصدر ملك العالم هذه الجاو المباركة سنة ٦٩٣ ﻫ ، فمن غيّرها أو محاها يقتل هو وزوجه وأولاده ويصادر ماله »

وأرسلت الى المدن منشورات تبين فوائد التعامل بهذه الأوراق، وتبشر الناس أن الفقر والبؤس سيزولان لا محالة ن دام التعامل بها . ومما جاء فى هذه المنشورات هذا البيت :

جاو أكَر در جهان روان كَردد   رونق ملك جاودان كَردد

وترجمته : « اذا راجت فى العالم الجاو دام رونق الملك أبدا »

ومما جاء فى قانون هذه الأوراق أن الورقة التى تمزق أو تبلى ترد الى الجاوخانه ويعطى صاحبها ورقة أُخرى تنقص عنها عشر القيمة .

ثار الناس على هذه الأوراق ، فيروى أنه جُعل موعد تداولها فى مدينة تبريز شهر ذى القعدة سنة ٦٩٣ ﻫ ، فلما جاء الموعد أقفلت الحوانيت ثلاثة أيام ووقفت الأعمال وأبى الناس أن يقبلوا الجاو المباركة .

وكان أعظم رجال الدولة نصيبا من سخط الناس وبغضهم عز الدين المظفر الذى وكل اليه احراج الأوراق والقيام عليها . ومما قيل فيه :

تو عزّ دينى وظـل جهانى   جهان را هستىء تو نيست درخور
أزان كَبر ومسلمان ويهودى   بس أز توحيد حق والله أكبر
همى خوانند أز روى تضرع   بنزد حضرت داراى داور
خدايا بر مراد خويش هر كَز   مبادا درجهان يكدَم مظفر

وترجمتها :

« أنت عز الدين وظل العالم، ولكن بقاءك شر على العالم، « من أجل ذلك ترى المسلمين واليهود والمجوس بعد توحيد الله وتكبيره يتضرعون الى الحكَم العدل : ربنا لا تجعله ساعة واحدة مظفرا بمراده »

انتشرت الثورة فى مدن كثيرة حتى ذهب كبراء المغول الى السلطان كيخاتو فكلموه فى أمر هذه الأوراق البغيضة حتى رضى بالغائها .

القلب المحـــطم

رسالة الى صـــديق

بغير هذا اللون من الصور الشاحبة الحزينة ، كنت أود أن أصور لك عواطفي ومشاعري ، وبغير هذه السطور التي تترقرق فى خلالها دموع البث والشكوى ، كنت أحب أن يجرى بالكتابة اليك قلمي . ولـكني لاأريد أن أخدعك فى شأن من شئون نفسي . وما أحسبـك تريدني على أن اصنع لك كلاما عن راحة القلب وهدوء الضمير فى الوقت الذى تعصف بى الاحداث فيه عصفا يزلزل كيان النفس ، ويزعزع أشد الافئدة احتراماً لقوانين الأرض ، وايماناً بعدالة السماء ، لقد شغلت فى مطالع الشباب وبواكر الصبى بما يشبـه أن يكون استجابة حارة لرغبات القلب ونوازع الهوى ، وألهتني متعة اليوم عن التفـكير فيما عسى أن يطلع به الغد ، وقنعت بتلك النشوة التى يملأ بها الحب شِعاب القلب فى عالم تتألق حواشيه بالبسمات والاحلام . وكنت لغفلتي أحسب الحياة ستظل على هذا النحو رخية لينة ، وان الحبّ مادام يعمرها ويخلع عليها من مفاتنه سلاما وابتساما ونورا ، فثمة ملقى العصا ، وغاية الامل ، ونهاية المطاف . فلو أنني أحطت هذه الحياة الاثيرة لديَّ بسياج يكـفل لها على الايام بقاءً واطِّرادا . لما تعثرت فى أذيال هـذه الخيبة الاليمة . ولـما صرت الى ما أعانيه اليوم من تعَس وشقاء .

أيها القلب ! لقد سعدتَ بالحب حلما ذهبياً سلسل فى نواحيك الامل ، وأشاع فى جوانبك الرجاء ، ولـكـنك شقيت به يقظة رهيبة تـكشفت لك فى ضوئها عناصر الجريمة من خيانة وغدر وعبث اليم بقداسـة العهد والوفاء . فهل تراك ياقلب معتبراً بما اسلفك الحب من تجاربه القاسية الاليمة ، فتظل بنجوة عن الوقوع فى شرك البسمات المغريات ، والنظرات القاتلات ، ترسلها العيون الذابلة المريضة ؟ أتراكِ معتبراً بعد أن عرفت أن الحب انما يصور لك الحياة روضة مسحورة تشدو بلابلها ، وتَطرد جداولها ، وتتأرج بالعطر الجميل ازاهرها ؟ ثم .. ثم تجف الروضة وتغيض الجداول وتصمت الاطيار ، وتتحطم الامانى ، وتتبدد الاحلام . واذا الدنيا مناحة قائمة . واذا الحب الذى سعدت به تلك اللحظات الخاطفة يستحيل الى حسرة الماضى ، وفجيعة الحاضر ، ولعنة المستقبل . واذا تلك الاناشيد الداوية تحور الى انين خافت ، وآلام دفينة خرساء . واذن ففيم هذا التهالك العجيب على تلك الشجرة الملعونة وقد بلوت المر من ثمرها ؟ وفيم تلك الخفقات السريعة المتلاحقة كلما رنت اليك غانية بنظرة . أوتوامضت لك على شفتيها ابتسامة ؟ وهذا الجسم الذى أذبلت زهرته ، وأيبست عوده ، وعطلت نشاطه ، وصرفته عن مُثُله العليا ، وفجعته فى اقدس ما كان يرجِّيه من أمل ويحرص عليه من سعادة ، ألا تأخذك فيه عاطفة من الاشفاق والرحمة ، فتدعه يفرغ لما تتطلبه الحياة من جهاد طويل الشقة ، وعر المسالك ، فادح الاعباء .. ايها القلب ! انك أن تظل سادرا فى غوايتك ، فانى لأخشى أن أناجيك غداً بقول الشاعر :

أقول لقلبي كلما ضامه الأسى	اذاما أبيت العزفاصبرعلى الذل
برأيك لارأيى تعرضت للهوى	وقولك لاقولى، وفعلك لافعلى
فان تك مقتولا على غير بغية	فانت الذى عرضت نفسك للقتل

عبد الوهاب حسن
قسم النشر — وزارة المالية

منهن ومنهن

للأستاذ عبد القادر المغربي
وكيل المجمع العلمي العربي بدمشق

(وإن من النسوان من هي روضة
تهيج الرياضُ دونها وتَصَوَّح)
(ومنهن غُـلٌّ مقفل لا يفكهُ
من الناس إلا الأحوزيّ الصَّلَنْقَحُ)

يقول حكيم العرب: «إن النساء مختلفات في طباعهن وأمزجتهن وغرائز نفوسهن»:

فمنهن امرأة حسنة السجايا طيبة الأخلاق، تشبه الروضة فيما اشتملت عليه من خضرة وزهر، وطيب ماء، ورقة هواء. بل ان الرياض الحقيقية ذات الخضرة والنضرة، قد (تهيج) أي يصفر نباتها و (تَتَصوَّح) أي تيبس أو تذبل أوراقها. أما تلك المرأة فهي روضة لا تهيج ولا تتصوَّح، وانما تبقى ناضرة الخضرة، طيبة الشذا طول حياتها.

هذه واحدة من النساء ياسعادة مجتمعها بها.

ومنهن واحدة أخرى وصفها الشاعر في البيت الثاني بأنها كالغُـلّ. وهو القيد المقفل أي المشدود على عنق الرجل أو يديه، يمنعه الحركة ولا يقدر على فكه إلا (الأحوزيُّ الصَّلَنْقَحُ)

(الأحوزي) الحاذق في السَّوق، الذي يعرف كيف يسوق الدابة ويحملها على السرعة في السير. فبينا ترى غيره يقطع بها مسافة عشرة أيام تراه هو يقطع بها ثلاثة أيام. وذلك لأنه (صَلَنْقَح) أي صيّاح شديد الصوت. (وصَلَنْقح) كلمة غريبة وثقيلة على السمع، غير أنها قد تروج لدى القارىء المنصف مذ يرى المقام يقتضيها، والسياق يواتيها، والقافية تناديها.

وَوَصْفُ امرأة السوء بالغُـلّ معهود عند العرب، ومنه قولهم: (هي غلٌّ قَمِل. وجرح لا يندمل) ومعنى (قَمِل) أن الغُـلّ أحياناً يكونَ من جلد غير مدبوغ ويكون على الأسير الذي يدوم أسره ويطول عهده بالاغتسال فيتسخ بدنه ويعشش القمل في غله ويأخذ برعى في تجاليده فيؤذيه ويمنعه طيب المنام وهكذا حال امرأة السوء في البيت الذي تعيش فيه.

***

قد يعترض معترض على البيت الثاني بأن فيه إحالة، ومعنى (الاحالة) في اصطلاح علماء النقد الأدبي أن يكون الكلام معدولا به عن وجه الصواب

وهنا قد شبه الشاعر امرأة السوء بالغل الموثق المحكم الشد. ثم قال انه لا يفك هذا الغل الا سائق صياح شديد الصوت

ولكن هل من عادة القيود المحكمة الشدّ أن تفك وتُحلّ عُقَدُها بكثرة الصياح والجلَبة؟

ربما كان في هذا الاعتراض شيء من الحق. فماذا كان يجب أن يقال اذن؟

كان ينبغي أن يقال في البيت الثاني هكذا:

(ومنهن مُهر شامسُ لا يروضه
من الناس الا الأحوذيُّ الصلنقح)

فيكون المعنى أن من النساء من تكون كالمهر الشامس (أي الشَمُوس) الذي يكثر شروده ولا يقدر على ترويضه وتليين شكيمته إلا الرجل الذي يعرف كيف يسوسه ويؤدبه بالانتهار ورفع الصوت والصَخَب عليه.

فتقول: ولكن كلمة (شامس) غير مأنوسة الاستعمال والمعروف (شَمُوس) فماذا يمكن أن يحلّ محلّها من كلمات اللغة؟

أقول يمكن أن يقال في البيت هكذا:

(ومنهن مُهر كَوْسَجٌ لا يروضه... الخ.

و (الكوسج) من الخيل: الفرس الذي تريده على السير فلا يسير حتى تضربه.

فيقول القارىء معنى (الكوسج) حسن. ولكن لفظه اشتهر في معنى خفة شعر اللحية فلا أرى استعماله هنا. هات كلمة سواها يا استاذ.

فأقول ها كها:

ومنهن مهر خارط لا يروضه... الخ.

و (الخارط) الفرس الذى يجذب رسنه من يد ممسكه ثم يفلت شاردا لايلوى على شىء .

ومثل (الخارط) اَلخرُوط .

ولذلك تسمى المرأة الفاجرة التى جذبت رسنها من يد أسرتها (خروط)

يقول القارىء : وكلمة (خارط) أيضا قبيحة اللفظ وكفَى (بالخرط) قبحا .

على أن استقباح القارىء لكلمة (خارط فى غير محله . وليس معه حقّ فيه : إذ كيف يستثقل كلمة (خارط) وهذه كلمـة (خارطة) بمعنى الاطلس الجغرافى يتلفظ بها كثيراً . ويسمعها من صبيانه وبناته وهم يدرسون فى بيته ، ومن سائر التلامذة وأساتذتهم يقولونها عشرات من المرات فى اليوم ـ كل هذا لاتستثقل معه أيها القارىء الكريم كلمة (خارطة) وتقوم الآن فتستثقل كلمة (خارط) وتتشاءم بها ! !

ومع هذا فدونك كلمةً رابعة وهى :

(ومنهن مهرٌ ضاغنٌ لا يروضه الخ .

ومعنى (الضاغن) الفرس الذى لايُعطى كل ماعنده من الجرى حتى يضُرب ، أو هو الفرس الذى إذا مشَى كان كأنه يرجع القهقرى . ويمشى الى الوراء .

وقبل أن يبادرنى القارىء بالتأفف من كلمة (ضاغن) أذكره بالأسرة اللغوية التى تنتمى اليها كلمة (ضاغن) — ولو لفظاً — :

فان تلك الأسرة وجميع سـلالتها مقيمةٌ بيننـا محبّبة الينا . شائعة على ألسنتنا :

فالضغن أُمّ الأسرة ومن نسلها (الاضغان) و (الضغينة) و (الضغـائن) و (تضَاغَنَ) القوم و (اضطغَنَ) فـلان على فلان

فهل بعد هذا يصح للقارىء أن يتجهّم لـكلمة (ضاغن) ويدّعى غرابتها . ويطلب أن يستبدل بها سواها ؟

دمشق — المغربى

فى الأدب المصرى القديم

ملخص فصل من كتاب

(النيل والحضارة المصرية)

للأستاذ (آ . موريه)

كان المصريون أصحاب ألسنة لاتعرف الملل فى نطق ، على ان ماجاءنا من آثارهم الادبية هو ثروة قليلة بالنسبة الى ثمار شعب يحكى عنه منذ اربعة آلاف عام ، وفى هذه الاعمار التاريخية قامت مآثر أدبية تختلف صفاتها الاجتماعية والطبيعية . والادب كما هو فى مصر وغير مصر ـ مرآة تتمثل فيها الحياة الاجتماعية

نشأت المآثر الاولى فى « الدولة القديمة » مصحوبة بأدب دينى صرف مقيد بتعاليم الكهنة ، وهذا الادب هوالنصوص الجليلة والآثار المعروفة « بموضوعات الاهرام » والتى تحفظ كثيرا من التاريخ القديم ، والديانة القديمة ، والحركة العقلية القديمة ، والجزء الثانى منها هو عبارة عن نصوص منقوشـة على حجارة ، وحكم هذاالادب حكم الزخرفة وبقية الفنون ، لم يكن المراد منه الا تزيين الهياكل والقبور ، ومن الواجب ان يكون خاضعا حتى فى مظهره الخارجى لهيئة العمارة ، وفى قبور (ممفيس) فصول شعبية لايتلاءم اسلوبها الحرمع الطقوس والتقاليد ، وهذه الفصول الخرافية تطلعنا على اللهجة العامية ؛ بل تكاد توحى لنا عن نفسية الشعب . . .

هذه أغنية قديمـة للراعى الذى يسوق قطيعه بين اتلاع الارض ناثراً بذوره

« الراعى هو فى الماء مع الاسماك يتناجى مع (صنف من السمك) ويتبادل التحيات مع (صنف من السمك) يامغرب ! من أين جاء الراعى ؟ انه من بلاد المغرب »

وهنا لك مقطوعة مرفوعة لأوزيريس الملقى فى النهر . وقد هشمته الأسماك ، وأجزاؤه المتناثرة على الارض قد أخصبت تلاع الارض . والذين يحملون ـ على أكتافهم ـ الأسياد الضخام ؛ يخففون من أتعابهم بانشادهم .

« ان حاملى الهودج هم فى سرور
ولأن يكون الهودج ملآن خير من ان يكون فارغاً »

وعصر ثان تفتح فى عهد الثورة الاجتماعية بين المملكة القديمة والمملكة الوسطى. فازدهرت الفصاحة فيه أيما ازدهار، وترك الادب الدينى محلا للادب الاجتماعى، فانقضى عصر الادب الحجرى وأصبح يدون منه شيء على ورق البردى، وبهذا خفف الفكر عنه بانعتاقه من السجن الحجرى. فأصبح كل شيء يدعو إلى الملاحظة، ويغرى بالتأمل، وأصبحت العقول المثقفة تشعر بالضيق وتحس بالشك واليأس، والشعب تدفعه عوامل الرغبة الى المعرفة واللذة، نشوان بنجاح جرأته، وكما يكون الامر فى كل ثورة، تصطدم الحركة العقلية بالقوة الجارفة، فلا يكاد يجد العقل متسعا ولا فراغا للانتاج، على أنه برغم ذلك قام بعض متأملين معتزلين، وألقوا بذورا مثمرة فى هذا المجتمع يوم ثورته. وفى عهد ملوك «هيراكليوبوليس» دون المصريون «تعاليم للملك مريكارا» وهجاء الضائع، وأنين الفلاح. وكلها مرايا تنعكس فيها الحالة السياسية التى شرحناها من قبل. وفى العهد نفسه نشأت موضوعات مختلفة ـ أيام الفوضى ـ وضعها أصحابها على لسان حكيم هرم أو كاهن، و شكاوى طرحها (مبغض للبشرية) بينه وبين نفسه، وفى كل هذا نرى الشعور الدينى قد ضعف شأنه، وهنالك حيث تحطم النظام الاجتماعى الاول نرى التعاليم الاعتقادية قد تقوضت ووهن تأثيرها فى النفوس.

فى الاسرة الثانية عشرة على أثر الانعتاق من الروابط السحرية التى تلت عصر الثورة، حل شيء من الثقة فى النظام، وأصبح المجتمع تسيطر عليه شرائع عادلة، والادب الجديد الدينى المنقوش على الصفائح والتوابيت، وعلى ورق البردى كان يعمل على انماء الخواطر التى تدفع بالانسان الفاضل الى التلذذ بالنعيم الالهى فى العالم الثانى. وفى هذا العصر ازدهرت مدرسة ادبية عنيت بتهذيب اللغة وتنقيح الأسلوب، ونحن مدينون لاصحابه بقصص لطيفة منها (سيروت) و(الغريق) وهذه قصة حادثية تحوى أهواء مسافر طرحته المقادير فى صحراء، أوساقته الى بحار مجهولة. وهنالك مشروع ساعد على تهذيب موظفى الحكومة وتثقيفهم، فنشأ من كل ذلك موضوعات وصفية وعاطفية وقصصية تؤلف ادب ذلك العصر كله، بل الادب (الكلاسيكى) لمصر القديمة.

والادب ـ فى الدولة الحديثة ـ فاض معينه، وتوثبت امواجه الى شواطيء حرة، وأساليب غير مقيدة. والدولة الحديثة قد حطمت قيودها وفتحت لنفسها ينابيع جديدة «للتحسس» حتى أصبحت الفنون فى عهد (العماونه) عالمية.

والأدب الحديث حطم قيود المدرسة الأدبية واستطاع أن يدخل على لغته المختارة بساطة اللغة العامية. ولم يكن من طريق الاتفاق ما رأيناه فى كتابات (ايكوناتون) لأول مرة من التطورات الصرفية والنحوية التى طغت على الأسلوب الخاص ولهجة الشعب بما فيها، وادخلت (اداة التعريف وأفعال المساعدة، والبناء الصرفى (أو الاشتقاق). والقصص الصغيرة التى كتبت للاطفال خير مثال لنا، والأدب الدينى نفسه قد تطور وتشذب ليدنو من أدب الشعب وروحه: وأغانى (آمون) الذائعة الصيت تبث بسلامة قلب محبة الخلائق المتواضعة.

بعض نصائح أخلاقية من تعاليم «آتى»:

يقول: (ضاعف الخبز الذى تحمله لأمك، واحملها كما حملته لك، عند ماولدت وبعد ولادتك بشهور، حملتك على حضنها، وثلاثة أعوام ظل ثديها يدر فى فمك، فلم يأخذها سأم منك ولم تقل لنفسها يوماً: لماذا أصنع هكذا؟ قادتك الى الكتاب وبينا أنت تتعلم الكتابة كانت تنقل لك من بيتها خبزاً ونبيذاً. وغدا اذا صرت كبيرا وصار لك امرأة، ووجب عليك تدبير منزلك فأرجع بصرك الى العصر الذى كنت فيه طفلا على حضن أمك يوم لم تصخب عليك ولم تبسط يدها لله الذى لم يسمع لها أنيناً...»

ثم يذكر الأخلاقى علاقة الرجل مع المرأة فيقول:

«احترس من المرأة الأجنبية المجهولة فى مدينتها، هى كالماء الواسع العميق لا يدرى ماتحت أعماقه

واحذر المرأة التى يغيب بعلها، وتتصدى لك كل يوم قائلة لك «انى جميلة» ليس هنالك من شهود، ولكن الخطيئة عظيمة جدير صاحبها بالموت اذا فشت!

(يتبع) خليل هنداوى

بلاط الشهداء

استدراك

اطلعنى صديقى محرر الرسالة الغراء على خطاب بعث به أحد القراء (محمد فرغلى محمد بمنفلوط) يشير فيه الى خطأ وقع فى مقالى الأول عن (بلاط الشهداء) فى رقم السنة التى حدث فيها فتح الأندلس اذ ذكر انها فتحت سنة ٩٧ — سنة ٩٨ هـ. والواقع كما لاحظ القارىء الفاضل نفسه أن كتابة الرقم بهذه الصورة كانت سهوا محضا بدليل صحة التاريخ الميلادى الذى قرن به التاريخ الهجرى (سنة ٧١١ م). أما حقيقة التاريخ الهجرى فهى سنة ٩١ — سنة ٩٢هـ

عنان

على ذكر الشعر المرسل

الشكل والموضـــوع

حول قصيدة الآنسة سهير القلماوى

فى الادب كما فى القانون شكل وموضوع، وكما يرفض القاضى الطعن فى حكم ما شكلا ويقبله موضوعا، فقد يرفض القارىء قصيدة ما، شكلا وان قبلها موضوعا، والشكل فى الادب لا يقل فى خطره عن الموضوع، فكم من قطعة أدبية أفسد أسلوبها موضوعها، وكم من قصيدة ذهب قبح نظمها بجمال معناها، وكم من قصيدة رقيقة اللفظ جميلة الاداء، فى كلماتها عذوبة وفى نظمها اتساق، غير ان المعنى الجليل فارق فيها اللفظ الجميل، والخيال السامى بعد فيها عن الاداء الحسن، وهى مع ذلك خالدة على الدهر سائرة كالمثل.

وقد قرأنا للآنسة الاديبة سهير القلماوى فى عدد الرسالة الماضى قصيدة نظمتها، فراعت فيها كما قالت خاصتين من خواص الشعر العربى وهما الوزن وتمام المعنى فى البيت الواحد، وأهملت الخاصة الثالثة وهى القافية، فعنيت بالموضوع وأهملت الشكل، وكان الأجدر بها وقد أرادت أن تتبع سنة التجديد فى الشعر العربى الا تجىء الى ركن من أهم الاركان الفنية فيه فتمحوه وتهمله وتقرب الشعر بذلك الى النثر، فلست أرى الشعر المرسل الا نثرا موزونا نخشى أن تمتد اليه يد التجديد فتنتزع منه الوزن أيضاً. ولو قد أنصفت لأهملت تمام المعنى فى البيت الواحد وراعت القافية فهى التى تعد بحق وباطراد من خواص الشعر العربى البارزة التى تميزه من كل شعر سواه، والتى أكسبته روعة خاصة، وأشركت الحس مع العقل فيه، وهيأت له السمع والادراك، وجمعت للقارىء بين لذة التوقيع ولذة الفكر والفهم، وربما قيل ان التوقيع انما جاء من الوزن لا من القافية، ولكن اصطدام القارىء بحروف متغايرة فى أواخر الأبيات يشعره بفقدان الوزن فى ثناياها.

اما تمام المعنى فى البيت الواحد فلم يكن من خصائص الشعر العربى، وإنما كان من خصائص الشعراء العرب، فليس يدخل أذن فى أصول الفن الشعرى التى لا بد للشعر منها كالوزن والقافية، فقد كان العرب اميل الى الايجاز والالمام بالمعنى فى غير توسع ولا اطناب، ومن هنا كان حرصهم على اتمام المعنى فى البيت الواحد كبيرا، حتى جرى الكثير من أبياتهم مجرى الأمثال لاحتوائه على المعنى الجليل فى اللفظ القليل، ومن هنا جاز لنا وقد تغير العصر وبعد الزمان وتغيرت الأذواق الا نتبع سنة القوم فى ضرورة اتمام المعنى فى البيت الواحد، على ان الشعر العربى لم يخل من قصائد لا يمكننا أن نقف فيها على كل بيت لعدم تمام المعنى فيه، ولكنه خلا تماما من قصيدة لم تنته بحرف واحد.

وقد يقال أيضا ان الشعر اذا أطلق من قيده وأعفى الشعراء من التزام القافية فيه أصبح الأمر مألوفا تقبله الأذواق وتعتاده الأسماع، ولكننا اذا عدنا الى قراءة الشعر العربى القديم وما نظمه المحدثون من شعر مقفى، وهذا كله كثير ثمين فسنشعر بالفرق بين الشعرين وسنعود الى القافية نستحسن مراعاتها والتزامها، ولا أحسب أحدا يدعونا الى ترك الشعر القديم واهماله لنفسح المجال للشعر المرسل فى غير حاجة ملحة ولا ضرورة ملجئة، واذن فالتجديد فى الشعر بارساله دعوة لا تقوم على أساس من الفن يصلح لأن يطغى على القافية فيمحوها من الشعر العربى

وتشعر الآنسة ان المعنى اذا تم فى البيت الواحد لم نحس باهمال القافية، وهذا صحيح اذا كان الشعر معنى فقط لا دخل للحس فيه، الا ترى الآنسة ان بعض أبيات قصيدتها وقد راعت فيه القافية كان ألذ للسمع من البعض الآخر الذى أهملتها فيه هذا قولها:

قد أوهنت عظامه السنين وغضنت جبينه العصور
وقسوة المسعى وراء العيش قد أفقدته جزءه الانسانى

ألا ترى أن اهمال القافية فى البيت الثانى قد جعله نابيا غريبا على السمع، فقبله الادراك لحسن معناه، ورفضه السمع لاختلافه مع سابقه فى مبناه؟ وهذا قولها:

ياسادة العبيد والأراضى كيف لقاء الرب يوم الدين؟
يوم مثوله أمام الله بعد سكون الساع والسنين

ألا ترى ان مراعاة القافية فيه قد كسبه جمالا وتهيأت له الاسماع والافهام؟ أؤكد للآنسة ان اهمال القافية لا يغنى عنه تمام المعنى فى البيت الواحد، وان شعور الكاتب نفسه لا يكفى دائما للحكم على آثاره الأدبية؟

محمد قدرى لطفى
ليسانسيه فى الآداب

(الرسالة) : جاءنا فى هذا المعنى مقالان آخران للأديبين (أبو الفتوح رضوان) و (نصرى عطا الله) فاكتفينا بهذا المقال لانهما لا يخرجان عنه

فلسفة سبينوزا

للأستاذ زكى نجيب محمود

— ٢ —

شرحنا فى المقال السابق فلسفة سبينوزا الميتافيزيقية التى تتلخص فى أن فى الكون حقيقة واحدة خالدة ، هى عبارة عن قانون عام شامل لا ينقص ولا يزيد . هذه الحقيقة الخالدة ، أو هذا القانون الشامل ، لايمكن أن يعبر عن نفسه ويفصح عن حقيقته الا بواسطة الأجسام المادية ، فاتخذ من تلك المادة التى تملأ جوانب الكون ، قوالب وأشكالا لكى يبرز عن طريقها الى عالم الواقع المحسوس ، وهذه الصور والأشكال المادية التى تتخذ وسيلة للتعبير عن ذلك القانون الخالد ، لا تظل على هيئة خاصة معينة ، فهى متغيرة متبدلة أبدا ، بل قد تزول وتفنى ، ولكن تلك الحقيقة نفسها باقية خالدة لاتفنى ولا تزول ، بل لاتنقص ولا تزيد ، وهى لا تفتأ تلبس هذا الثوب المادى وتخلع ذاك الى أبد الآبدين . وذكرنا أن ذلك القانون الأعلى وهذه الطبيعة شىء واحد لا يقبل التجزئة

ونزيد فى هذا المقال أن نتناول بالشرح الموجز فلسفته الاخلاقية والسياسية إتماما للبحث :

١ — الذكاء والأخلاق

للأخلاق فلسفة متضاربة متناقضة ، فهذا الفيلسوف يدعو الى نظام أخلاقى معين ، وذاك يروج لنقيضه ، وثالث يقف بين بين ، يأخذ من هذا وذاك بمقدار . فهذه المسيحية تبشر بفضائل الاستكانة والتواضع ، وتدعو الناس إلى العطف والرحمة والايثار ، وتعلم الناس أنهم جميعا سواسية لا يمتاز رجل على رجل ، ترد الشر بالخير ، وتميل فى السياسة إلى الديمقراطية المطلقة من كل القيود ، وهى تعتبر المحبة أساس الفضيلة . . وذانكم مكيافلى ونيتشه يدعوان الناس الى التخلق بأخلاق الرجولة القوية الصحيحة ، وينكران المساواة بين الناس ، فمنهم الضعيف ومنهم القوى ، وفيهم العبقرى الفيلسوف وفيهم الغبى الأبله ، ويحفزان الناس الى نبذ السلم والمغامرة فى معمعان العراك والقتال ليحرز النصر من هو جدير بالنصر ، وليتربع على الحكم من يستحق الحكم والسلطان ، والفضيلة عندهما هى القوة ، ويميلان فى السياسة إلى الاستبداد والأرستقراطية الوراثية ، فمكيافلى يصرح فى كتابه « الأمير » بكل جرأة : « أن الأمير الذى يريد حفظ كيان دولته ، لابد له فى كثير من الأحيان أن يخالف الذمة والمروءة والأنسانية والدين » كما يحبذ نيتشه سياسة بسمارك التى تنتصر بالحديد والدم .

وبين هذين النقيضين يقوم نظام أخلاقى وسط بين حب المسيح وقوة نيتشه ، دعا اليه أرسطو ، ومؤداه المزج بين أخلاق الضعف وأخلاق القوة ، ويريد أن يلقى بزمام الأمر الى العقل المثقف الحكيم ، فهو وحده الذى يصح أن يؤتمن على اختيار الأخلاق الملائمة للمواقف المختلفة ، فهو يعرف متى يلبس لبوس الحنان والعطف ، ومتى يتنمر ليفترس ، ومعنى ذلك أن الفضيلة عند أرسطو هى الذكاء ، ويميل فى السياسة إلى مزيج من الأرستقراطية والديمقراطية

ثم جاء سبينوزا فأخذ ينسج من هذه الصور وحدة خلقية متناسقة . وهو فى هذا يسير سيرا منطقياً دقيقا حتى ينتهى الى نتائجه التى يقدمها ، فهو يبدأ بتقريره أن السعادة هى الغرض المقصود من الأخلاق الفاضلة . ولكن ما هى هذه السعادة التى نتجه نحوها ونقصد اليها ؟ هى عنده فى بساطة لا لبس فيها ولا غموض : وجود السرور وارتفاع الألم . ولكنا نعود فنقول : وما السرور والألم ؟ أهما حالتان معينتان ؟ أم هما نسبيان يختلفان باختلاف الأشخاص ؟ هنا يجيب سبينوزا بأنهما ليسا حالتين ، أى ليس ثمة حالة مستقرة يقف عندها المرء قائلا : هنا السعادة ، وهناك الألم . انما السعادة شعور بانتقال النفس الى درجة أدنى الى الكمال ، والألم شعور بانتقالها الى مرتبة أبعد عنه . ولما كان الكمال عنده هو القوة ، لا قوة نيتشه الغاشمة العمياء التى تقوم على الغريزة الوحشية ، ولكنها القوة العقلية المتزنة . فكلما درجت صاعدا فى سبيل هذه القوة العقلية كنت أقرب الى الكمال ، وكنت بالتالى سعيدا مطمئن النفس . ومعنى هذا أن العواطف والمشاعر المختلفة هى مسالك أو طرق تسير فيها النفس ، مقبلة نحو القوة تارة ، مدبرة عنها طورا . (لاحظ العلاقة بين كلمتى pass و passion . وكذلك بين كلمتى motion و emotion لتدرك العلاقة القوية فى اللفظ بين ألفاظ الحركة وألفاظ العواطف والمشاعر . ومثل هذه العلاقة موجودة أيضا فى اللغة الفرنسية) فالفضيلة والقوة عند سبينوزا شىء واحد ، أى أن الفضيلة هى زيادة فاعلية النفس التى تعمل على حفظ البقاء . وكلما اتسعت مقدرة الانسان على حفظ وجوده ازداد ما يتحلى به من فضيلة . وبعبارة أوضح يعتقد سبينوزا أن أساس الفضيلة هى الأنانية المعتدلة التى تعينك على الاحتفاظ بوجودك ، وهو لا يرى فى حب الشخص لنفسه ضرراً يلحق بالآخرين . واذن فلا خير فى أن تضحى بنفسك من أجل غيرك الا اذا كان فى ذلك قوة لك ،

وهكذا يجب أن يحب كل انسان نفسه ، وان يلتمس كل وسيلة ممكنة تأخذ بيده الى مرتبة أدنى الى الكمال

فأنت ترى من ذلك أن سبينوزا لا يبنى الأخلاق على الايثار والخير الطبيعى ، ولا على الأنانية البشعة والشر الطبيعى ، ولكن على انانية معقولة لا يجد منها مفرا لحفظ البقاء وعنده أن هذه الأنانية المعتدلة التى يمليها منطق الحياة نفسها لا يمكن أن تباعد بين مصالح الأفراد ، أو تبذر بذور البغضاء فى النفوس ، لذلك تراه لا يتمالك نفسه حيرة فى هذا التحاسد والتنابذ والكراهية ، وهو يائس من أن يبرأ المجتمع من علله وأمراضه قبل أن يهذب الناس من هذه العواطف ويصلحوها ، وهو ينصح لنا أن نبادل أعداءنا حبا بكره ، ذلك لأن الكراهية تنمو وتتغذى اذا وجدت لها صدى من كراهية مثلها فى نفوس الآخرين . وهو بمحاربة هذا التباغض ينشد فينا النخوة الحق والرجولة الصحيحة ، فأنت حين تشعر بالكراهية نحو غيرك ، فانما يكون ذلك اعترافا صريحا منك بانحطاطك دونه وخوفك منه ، لأنك لا تكره عدوا تثق بأنك تستطيع أن تتغلب عليه فى سهولة وتدحره فى غير عناء .

واذا كانت عواطفنا الغريزية كما نرى حائرة السبيل يعوزها الدليل الأمين ، فلايجوز اذن أن نلقى بزمامنا اليها ، انما يجب أن يكون الفكر وحده رائدنا ، ولكن سبينوزا لايريد أن نكبح الغرائز جملة واحدة ، لا بل نستغلها ونتخذ منها دافعا يسوقنا تحت سيطرة العقل واشرافه ، فتكون هى بمثابة قوة البخار الذى يدفع القطار ، ويكون العقل بمثابة السائق الذى يتحكم فى سيره ووقوفه ، وحجته فى عجز الغرائز وحدها عن القيادة ، انها متضادة الأغراض متضاربة المقاصد ، فاذا ماتركناها على سجيتها ، انطلقت كل واحدة تسعى فى اشباع رغبتها ، دون أن تراعى صالح الكل ، واذن فلابد من رقابة رشيدة تعمل أولا وقبل كل شىء لما فيه خير الشخص كمجموعة متحدة ، بأن نكبح بعض الغرائز حينا ، ونطلق بعضها الآخر حينا ، حسب مايتطلبه الموقف ، ومعنى ذلك كله أن الفضيلة مرهونة بالمعرفة أو الذكاء

والذكاء وحده هو الوسيلة التى نستطيع بها أن نحرر أنفسنا من سيطرة الغرائز التى تفرض علينا سلوكا معينا ، وتعمل جهدها لقسرنا عليه . فنحن عبيد لها بقدر انسياقنا لما تمليه علينا ، أى أن سلبية العاطفة عبودية للانسان ، وحريته فى فاعلية العقل . فالحرية الشخصية متوقفة على المعرفة ، وفى ذلك يقول ديوى أستاذ الفلسفة فى جامعة كولمبيا بالولايات المتحدة : « إن الطبيب أو المهندس يكون حرا فى فكره وعمله بمقدار ماتتسع معرفته فى المهنة التى يباشرها ، وقد تكون هذه المعرفة مفتاح الحريات جميعا »

بناء على ذلك يكون السوبرمان (الانسان الأعلى) الذى ينشده سبينوزا هو الذى يستطيع أن يحرر نفسه من سلطان الغرائز ، وليس هو الذى يتخلص من القيود الاجتماعية العادلة كما صوره نيتشه . يقول سبينوزا : « ان من يعملون الخير بناء على ارادة العقل ، ويلتمسون النفع الذى يدل عليه المنطق الصحيح ، هؤلاء فى الواقع ينشدون مع خير أنفسهم صالحا للانسانية عامة » فلأن تكون عظيما لا يعنى أن تضع نفسك فوق مستوى البشر لتنشب أظفارك فى أعناقهم كما يريد نيتشه ، ولكن العظمة هى أن تترفع عن سخف الرغبات الغريزية ، التى لا يشرف عليها عقل متزن حكيم ، ليست العظمة فى أن تحكم الآخرين ، وانما هى فى أن تحكم نفسك

هذه الحرية التى تستطيع أن تنعم بها من السيطرة على نفسك هى أشرف مما يسمونه حرية الارادة ، لأن الارادة مجبرة مسيرة ، أو قل ليس ثمة ارادة ما ، لأن الارادة والفكر وجهان لحقيقة واحدة . وهنا يلاحظ سبينوزا أن ليس فى جبر الارادة نقيصة يؤسف عليها ، بل هو يهذب الأخلاق ويسمو بها الى مستوى رفيع ، فهو يعلمنا ألا نحتقر انسانا ، كائنا ما كان موضعه من المجتمع ، لأنه غير مسئول عن ذلك الموضع ، أنما كتبت لها لارادة العليا أن يكون حيث هو - والجبر كذلك يوحى الينا الرضى عما قد يبديه الدهر من قسوة وغلظة ، لأننا نعلم أنه ان ظلم وجار فى ناحية معينة ، فلابد أن يكون ذلك لصالح الكل ، مادامت الأفراد جزءا من جسم الوجود المتحد

٢ — الرسالة السياسية

كان صوت سبينوزا واحدا من تلك الأصوات التى انطلقت تصيح بحرية الانسان . ففى نفس الوقت الذى كان فيه (هوبز) يدافع عن الملكية فى انجلترا ، ويقاوم بنظريته قوة الشعب الانجليزى التى أخذت تناهض استبداد الملك ، كتب سبينوزا فلسفته السياسية ، وهى تعبر تعبيرا صادقا عن الديمقراطية التى بدأ يختلج حلمها الجميل فى نفوس الناس عندئذ ، والتى أخذت تنمو وتنمو حتى بلغت ذروتها عند روسو ، ثم تدفقت ثورة عنيفة فى فرنسا

يقدم سبينوزا بادىء الأمر هذه البديهية التى لاتحتمل الشك ، وهى ان الانسان فى أول نشأته كان يعيش منفردا غير مجتمع ، فلايرتبط مع غيره بقانون ولا نظام ، لايفهم معنى للحق الا ما يستطيع أن يستولى عليه بالقوة ، واذن لم يكن ذلك الانسان الأول يدرك معنى للخير والشر ، لأنهما عبارتان اصطلح عليهما

بعد تكوين المجتمع ، اذ أطلقنا على بعض الأعمال التى تواضع عليها الأفراد ، أما قبل ذلك فكان الفرد يتصرف حسب ما تملى عليه شهوته ، وبالطبع لم يكن مسئولا عن تصرفاته الا أمام نفسه ، ومعنى هذا أن الجريمة لم يكن لها وجود فى الحياة الطبيعية الأولى ، لأنها لا ندرك الا فى حالة المدنية ، حيث يتفق الجميع على تحديد الخير والشر ، ويصبح كل انسان مسئولا عن ذلك أمام هيئة معترف بها هى الدولة

وأنت تستطيع أن تتمثل الحياة الطبيعية الأولى التى لم تكن تفرق بين الخير والشر ، أو بعبارة أخرى بين ما يجوز عمله وما لا يجوز ، فى علاقة الدول بعضها مع بعض ، إذ لا يربطها نظام خلقى معترف به فى قوة النظام الذى يربط الأفراد ، ولا تشرف عليها سلطة عامة نافذة الأرادة كما هى الحال بين الأفراد ، لذلك كان الحق فى العلاقات الدولية هو القوة (يلاحظ أن اسم الدول العظمى بالأنجليزية هو Great powers وفى هذا إشارة صريحة تؤيد هذا المعنى) اذ لا تفهم الدول على وجه الدقه معنى الخير والشر كما يفهمها الأفراد.

كان الناس اذن يعيشون بادىء الأمر كما تعيش الدول الآن ، ليس لأحدهم عند الآخر حقوق . ولكن لم يلبث الأنسان أن شعر بحاجته الى التعاون لدرء ما يتعرض له من الخطر ، فاتفق الأفراد فيما بينهم على أن يتآزروا اذا دهمهم داهم من سوء ، ومعنى ذلك أن الأنسان ليس مدنيا بالطبع ، ولكنه اجتمع لدفع أخطار الحياة . وحسبك دليلا أن تلقى نظرة عجلى على الغرائز الأنسانية ، لترى كيف أن الغرائز الاجتماعية أضعف جدا من الغرائز الفردية ، فالأنسان يسعى لخيره أولا ثم يسعى لخير الدولة ، بل هى الأنانية أيضا التى تدفعه للسعى وراء خير الدولة ، لأنها دولته هو ، ويريد أن يسعد بسعادتها

اضطر الأنسان اذن الى الاجتماع بعد تلك الحياة الفردية ، فتواضع الجميع على حدود خاصة لا يجوز لواحد أن يشذ عنها ، بحيث يصبح لكل انسان الحق فى أن يتصرف كيف شاء ، دون أن يخرج على تلك الحدود المرسومة ، أى أن له أن يستمتع بكل ماله من قوة شخصية دون أن يغير على حرية الآخرين ، وبعبارة أخرى اتفق الأفراد على أن ينزل كل منهم عن بعض حقوقه الطبيعية لهذه الجماعة المنظمة ، فى مقابل أن يأمن ويطمئن على حقوقه الباقية ، أى أن قانون الجماعة يجب ألا تزيد وظيفته على الأشراف العام ، بحيث يسعى كل فرد حرا ، فى غير تضارب ولا تنافر بين الأفراد ، أى أن القانون الكامل يجب أن يكون للافراد بمثابة العقل للعواطف : يحسن تصريفها بحيث يزيد نشاطها من قوة الكل ، دون أن تتعرض واحدة منها لنشاط الأخرى

« فالغرض الاسمى من الدولة اذن ، لا أن تحكم الناس ، ولا أن تحد من مجهودهم ، بل يجب أن تؤمن الانسان من كل المخاوف ، حتى يعيش ويعمل فى طمأنينة تامة . . . الغرض من الدولة أن تدع الناس يعيش بعضهم بجانب بعض ، كل يستغل قوته العقلية فى صالح المجموعة ، حتى لا تتبدد قواهم فى التنابذ والتنافر ، اذن فالغرض الاسمى من الدولة هو الحرية »

وظيفة الدولة العليا أن تكفل للافراد حريتهم ، ومعنى ذلك أن الديمقراطية هى المثل الاعلى لنظام الحكم . ثم يستدرك سبينوزا بقوله ان ضرر الديموقراطية الوحيد هو ميلها الى وضع غير الأكفاء فى مناصب الحكم ، ولذلك ينصح علاجا لذلك أن يتسلم ادارة الدولة جماعة من ذوى العقول الجبارة ، كى يسيروا بها بعيدا عن مواطن الزلل . . . . . .

وفاضت روح سبينوزا وهو يكتب للناس رسالة الحرية

زكى نجيب محمود

ياليتنى...

اذا أطل البـــدر من خدره
فانما يطلع كى تنظريه
وان شدا البلبـل فى وكره
فانما يشـدو لكى تسمعيه
وان يَفُحْ عطر زهور الربى
فانما يعبق كى تنشـقيه
ياليتنى البـدر الذى تنظرين !
ياليتنى الطـير الذى تسمعين !
ياليتنى العطر الذى تنشقـين !
أواه لو تصـدق « ياليتنى » !

ايليا أبو ماضى

٣ ــــ العبــــقرية

علم وأدب وفن

للأستــاذ الحومانى

تتمــة

واختلال نظام الحياة فى الجسم مدعاة كبرى لاختلال نظام الحياة فى الروح لشدة تلازمهما بشدة أمتزاجهما ، فاذا كان لمحيطك جزء فيك ولك فيه مثل ذلك بصحبتك أياه زمناً ما ، فما قولك بصحبة الروح للجسم أزمانا يقصر العقل دون حدها ؟

ولا تنس انك وانت تلحظ مايدفعك اليها مستعرضا مايحف بها من هذه العوامل ، أنك جد عاجز عن لحاظ مايردعك عنها من مرجحات العفاف .

وهكذا تراك ، وانت تلحظ مرجحات الفعل قاصراً بطبعك ان تلحظ مرجحات الترك ، ضرورة أنه يستحيل على المرء ان يفكر فى أمرين فى وقت واحد فيجمع بين النقيضين ، فاحفظ هذه لترجع اليها قريبا .

فالذى يدفعك الى هذا العمل أو سواه من وراء الارادة لقوة عوامل الدفع من الخارج فى نفسك ، والذى يردعك عنه لقوة نقيضها من عوامل الردع ، والذى تستعرض به هذه العوامل أو غيرها فى المجتمع ، والذى يميز هذه الخواطر وهو يتصفحها فيفاضل بينها ، والذى يخزنها فى أحدى زوايا النفس أو يطبعها على صفحات القلب ، والذى يستخرجها عند مسيس الحاجة اليها ويبحث عنها فيما اذا خفيت وراء الضمير ، والذى يدرس بها الحوادث الخارجية درساً يستحيل ملكة فى النفس تعصمها عن الزلل فى الحياة ، والذى تحس به ما تمسك اليه الحاجة فى نفسك أو فى بدنك ، والذى يلهب جسمك تصوره ويحدم صدرك بما يتأثر به من عامل ، والذى يزاوج بين محسوساتك فيستخرج من الحقيقة خيالا عن طريق الأبداع فى التصوير ، كل ذلك واحد لا تتعدد حقيقته ، وجزئى فيك من ذلك المعنى الكلى تتعدد اسماؤه بما يتكيّف به من شكل ولون خارجيّين

فاذا استعرض الحوادث وحاكم بينها ليميز حسنها من قبيحها كان فكراً ، واذا حماك على فعل الحسن لقوة مايحفه من عامل خارجى كان عقلا. واذا دفع بك الى اقتراف الأثم لما تحصّل عنده من ترجيح بسبب مايحفه من عامل كان هوى ، فاذا خزن مايمر به من خواطر فى احدى زوايا النفس سمى حافظة ، ثم اذا هو استخرجها بعد حين أو راح يبحث عنها سمى ذاكرة

واذا درست به الحوادث فربى فيك ملكة الاستنباط سمى حذقا ودهاء ، وهكذا قد تتصور به مباشرة أو عن طريق حواسك ماتنفعل به نفسك فينتج سرورا أو حزناً ينتجان لذة أو ألما فتدعو ماينتج عنه عاطفة .

وقد يبدع فى التصوير أو يتصور مرغما بدافع الوهم الخارجى فيعطيك على طريق العبث بالحياة أو الخطأ فى التصور صوراً خيالية ينتزعها من الحقيقة فتسميه خيالا أو وهما

فالعقل والفكر والحذق والحافظة والذهن والفطنة والذكاء والحلم والهوى النفس الأمارة بالسوء والشيطان ، كل ذلك مصدر ، واحد لهذا العمل الخارجى ، يتلون بالعوامل التى تحف بالعمل محسنة ومقبحه ، يلبس لكل مؤثرّ لونا غير لونه مع مؤثر آخر ، ويدعى معه باسم كان قد دعى مع غيره باسم آخر

أما استلزامه فى الدين حكم الجبر فذلك مما رجحه ، والدين إنما كان لتربية المجتمع تدريجا ليستحيل الهوى فيه عقلا ، ويحول المثل الادنى فيه مثلا اعلى بحكم التطور ، اذ الخصائص النفسية بعد الارادة غرائز تكونت من الكسب الاجتماعى ، والجبر لامناص منه قبل هذه الاستحالة وبعدها ، فالمرء مع الهوى المطلق مجبر على كونه شيطانا ، ومع العقل المطلق مجبر على كونه ملكا .

فعلى هذا يكون مناط المثل الأعلى والمثل الأدنى فى المرء واحدا ولكنه باعتبارين مختلفين ، ولاعجب فى ذلك فالمرء مجمع الاضداد ، فبينا هو الحليم الرزين فى حالة ، اذا هو الاحمق الطائش فى حالة اخرى ، وبينا هو الشجاع المقدام فى مشهد ، اذا هو الجبان الرعديد فى مشهد آخر ، فليس ذلك ناشئاً فيه الا بفضل هذا السر الغامض الكامن فى نفسه المتلونة

وربما استقام لنا ان نخص المثل الاعلى بالعقل ، ونعزو المثل الأدنى للارادة ، إنما لابد لنا ونحن نمشى مع رغباتنا الى العمل السيء بعد المحاكمة العقلية وثبوت قبح هذا العمل لدى العقل أن نتساءل اين ذهب عنا مانسميه عقلا فلانحصله اذ ذاك الا بعد ان نلتفت اليه ؟

فما هو هذا الذى نلتفت به الى العقل ؟

هل هى الاراده وهى التى تدفعنا ؟

ثم اين يكون العقل ونحن فى انغماس بما تحملنا الارادة على الخوض فيه خلاف العقل ؟ فهل نفقده اذ ذاك ويكاد يكون جزءاً مقوما فى النفس. والنفس بمجموعها تيار لاينفك متلاطماً ، ولا يخبو له نشاط حتى يتعطل مايمسكه من آلة

فهل يذهب به اذ ذاك أختلال مركزه العصبى بينما نستطيع استرجاعه باقل التفات ؟

(النبطيه) جبل عامل الحومانى

٤ — بلاط الشــــهداء

بعد ألف ومائتى عام

للأســــتاذ محمد عبد الله عنان

وبينما قامت الدولة الاسلامية ثابتة وطيدة الدعائم ، وقامت فى جميع أقطار الخلافة حكومات محلية قوية ومجتمعات اسلامية مستنيرة ، وجيوش غازية منظمة ، اذا بمجتمع القبائل الجرمانية غزاة رومة من الشمال ما يزال اذا استثنينا مملكة الفرنج على حالته من البداوة والتجوال والتفرق . وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية فى هذا الصراع الذى نشب فى سهول فرنسا وآذن طوره الحاسم بعبور المسلمين الى فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ ، وكان سيل الفتح الاسلامى ينذر باجتياح فرنسا منذ عشرين عاما اعنى مذ عبر المسلمون جبال البرنيه بقيادة موسى بن نصير لاول مرة واستولوا على سبتمانيا ثم اقتحموا بعد ذلك وادى الرون واكوتين أكثر من مرة . ولكن مملكة الفرنج كانت يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية وتقتتل حول السلطان والرياسة حتى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر ، وأنفق اعواما أخرى فى توطيد سلطانه ؛ بينما كان خصمه ومنافسه أودو أميراً كوتين يتلقى وحده ضربات العرب . فلما استفحل خطر الفتح الاسلامى وانساب نحو الشمال حتى بورجونيا منذ ولاية الهيثم فزع الفرنج وهبت القبائل الجرمانية فى أوستراسيا ونوستريا لتذود عن سلطانها وكيانها .

وكان الخطر داهما حقيقيا فى تلك المرة لان المسلمين عبروا البرنيه عندئذ فى اكبر جيش حشد واتم أهبة اتخذت منذ الفتح . وكان على رأس الجيش الاسلامى قائد وافر الهمة والشجاعة والبراعة هو عبدالرحمن الغافقى وهو أعظم جندى مسلم عبر البرنيه . وكان قد ظهر براعته فى القيادة منذ موقعة تولوشة حيث استطاع انقاذ الجيش الاسلامى من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده السمح والارتداد الى سبتمانيا . وتبالغ الرواية الفرنجية فى تقدير جيش عبدالرحمن وأهبته فتقدره باربعمائة الف مقاتل، هذا غير جموع حاشدة أخرى صحبها لاستعمار الارض المفتوحة (١) وهو قول ظاهر المبالغة . وتقدره بعض الروايات العربية بسبعين أو ثمانين الف مقاتل، وهو أقرب الى الحقيقة والمعقول . بل لقد أثارت هذه الغزوة الاسلامية الشهيرة وهذا الجيش الفخم خيال الشاعر الاوربى الحديث، فنرى الشاعر الانجليزى سوذى يقول فى منظومته عن رد ريك آخر ملوك القوط :

« جمع لا يحصى ، من شام وبربر وعرب وروم خوارج . وفرس وقبط وتتر عصبة واحدة . يجمعها ايمان هائم راسخ الفتوة . وحمية مضطرمة واخوة مروعة . ولم يك الزعماء . أقل ثقة بالنصر . وقد شمخوا بطول ظفر . يهيمون بتلك القوة الجارفة . التى أيقنوا أنها كما اندفعت . حيثما كانوا بلا منازع ستندفع ظافرة الى الأمام حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق . يطأطىء الرأس اجلالا لاسم محمد . وينهض الحاج من أقاصى المنجمد . ليطأ باقدام الايمان الرمال المحرقة . المنتشرة فوق صحراء العرب واراضى مكة الصلدة » (١)

ونفذ عبدالرحمن فى جيشه الزاخر الى فرنسا كما قدمنا فى ربيع سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) واقتحم وادى الرون وولاية اكوتين وشتت قوى الدوق أودو طبق ما أسلفنا ، وأشرف بعد هذا السير الباهر على ضفاف اللوار . وتقول بعض الروايات الكنسية أن أودو هو الذى استدعى عبدالرحمن الى فرنسا ليعاونه على محاربة خصمه « كارل مارتل » (٢) . ولكن هذه الرواية مردودة غير معقولة لما قدمنا من أن أودو هو الذى بادر الى مقاومة عبدالرحمن ورده ، وكانت مملكته وعاصمته أول غنم للمسلمين . وكان ملك الفرنج يومئذ تيودريك الرابع، ولكن ملوك الفرنج كانوا فى ذلك العصر أشباحا قائمة فقط . وكان محافظ القصر كارل مارتل هو الملك الحقيقى يستأثر بكل سلطة حقيقية وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه وأمته، وكان منذ استفحل خطر الفتح الاسلامى يتخذ اهبته ويحشد قواه ، . ولكن عبد الرحمن نفذ الى قلب فرنسا قبل ان يتحرك للقائه . وترد الرواية الأسلامية هذا البطء الى خطة مرسومة مقصودة فتقول فى هذا الموطن « فاجتمعت الفرنج الى ملكها الاعظم قارله وهذه سمة لملوكهم . فقالت له ما هذا الخزى الباقى فى الاعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها وأستولوا على بلاد الأندلس وعظيم مافيها من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادروع لهم . فقال لهم مامعناه : الراى عندى ألا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فانهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى اقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بايسر

---

(١) Aschbach: Geschichte-der Omajaden in Spanien I. 670)

(١) Southy: Roderick the last of the Goths

(٢) راجع موسوعة Bouquet رواية القديس دنى Vol. III p. 310 — راجع ايضا موسوعة Bayle تحت كلمة Abderame

امر » (١) ونستطيع أيضا ان نعلل تمهل كارل مارتل بقصده الى ترك خصمه ومنافسه أودو دون غوث حتى يقضى المسلمون على ملكه وسلطانه فيتخلص بذلك من منافسته ومناوأته .

وعلى أى حال فان عبد الرحمن كان قد اقتحم أكوتين وجنوب فرنسا كله ، حينما تاهب كارل مارتل للسير الى لقائه . وجاء الدوق أودو بعد ضياع ملكه وتمزيق قواته يطلب الغوث والنجدة من خصمه القديم أعنى كارل مارتل . وكان كارل قد حشد جيشا ضخما من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها ، وجله جند غير نظاميين نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية . وسار زعيم الفرنجة فى هذا الجيش الجرار نحو الجنوب لملاقاة العرب فى حمى الهضاب والربى حتى يفاجىء العدو فى مراكزه قبل ان يستكمل الاهبة لرده .

وكان الجيش الاسلامى قد اجتاح عندئذ جميع أراضى أكوتين التى تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونج وبواتو . واشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية حيثما يلتقى بثلاثة من فروعه هى « الكريز » « والفيين » « والكلين »

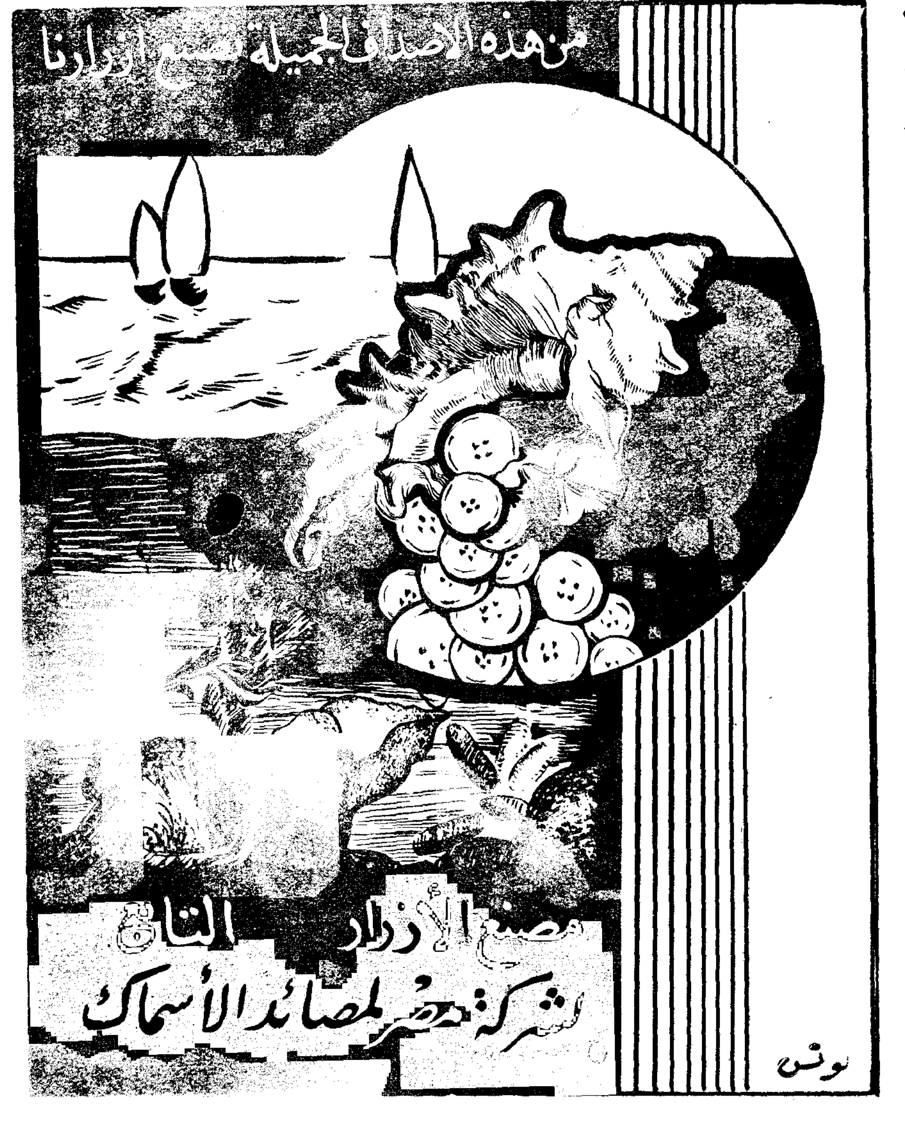
ومن الصعب أن نعين بالتحقيق مكان ذلك اللقاء الحاسم فى تاريخ الشرق والغرب والاسلام والنصرانية . ولكن المتفق عليه انه هو السهل الواقع بين مدينتى بواتييه وتور حول نهرى « كلين » « وفيين » فرعى اللوار على مقربة من مدينة تور . والرواية الاسلامية مقلة موجزة فى الكلام عن تلك الموقعة العظيمة وليس فيها لدينا من المصادر العربية عنها أى تفصيل شامل ، وإنما وردت تفاصيل للرواية الاسلامية عن الموقعة نقلها الينا المؤرخ الأسبانى كونده سنعود اليها بعد . وتفيض الرواية الفرنجية والكنسية بالعكس فى حوادث الموقعة وتقدم الينا عنها تفاصيل شائقة ولكن يحفها الريب

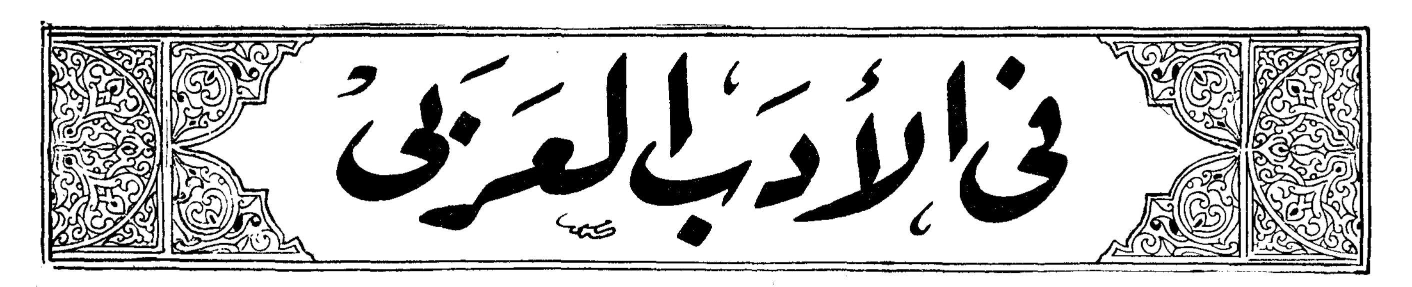
(١) المقرى عن الحجارى فى المسهب « نفح الطيب ج ١ ص ١٢٩ » - ويورد الحجارى هذه الرواية لمناسبة عبور موسى بن نصير الى فرنسا . ولكن ظاهر من اسم قارله « كارل » ان الامر يتعلق بالغزوة الكبيرة التى نتحدث عنها - واليها ترجع الرواية الكنسية (راجع جيبون - الفصل الثانى والخمسون) حيث يترجم نفس هذه الفقرة فى كلامه عن موقعة تور

وتنقصها الدقة التاريخية . وقد رأينا أن نجمل وصف الموقعة أولا بما لدينا من أقوال الروايتين ثم نورد كلتيهما بعدئذ بتفاصيلها .

انتهى الجيش الاسلامى فى زحفه الى السهل الممتد بين مدينتى بواتييه وتور كما قدمنا ، واستولى المسلمون على بواتييه ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة . ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى واستولوا عليها وخربوا كنيستها أيضاً . وفى ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى الى اللوار دون أن يشعر المسلمون بمقدمه بادىء بدء ، وأخطأت الطلائع الاسلامية تقدير عدده وعدته . فلما اراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار لملاقاة العدو على ضفته اليمنى فاجأه كارل مارتل بجموعه الجرارة . والفى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه فى الكثرة فارتد من ضفاف النهر ثانية الى السهل الواقع بين تور وبواتيه . وعبر كارل مارتل اللوار غرب تور وعسكر بجيشه الى يسار الجيش الاسلامى بأميال قليلة بين نهرى كلين وفيين فرعى اللوار .

(يتبع)





عكاظ والمربد

للأستاذ احمد أمين

٣ — المربد

أما المربد - على وزن منبر - فضاحيـــة من ضواحى البصرة؛ فى الجهة الغربية منها مما يلى البادية، بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال. كان سوقا للابل، قال الاصمعى: «المربد كل شىء حبست به الابل والغنم... وبه سميت مربد البصرة؛ وانما كان موضع سوق الابل (١)» وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة اليها. ويظهر أنه نشأ سوقا للابل، أنشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شؤونهم قبل أن يدخلوا الحضر او يخرجوا منه.

وقد كان العرب فى بادية العراق قبل الفتح الاسلامى؛ ونزلت فيه قبائل من بكر وربيعة، وكونوا فيه امارة المناذرة فى الحيرة؛ فكان هذا الاقليم معروفا لهم قبل الاسلام؛ وكانت الرحلات من البادية الى العراق، ومن العراق الى البادية فى حركة مستمرة - ومعلوم أن البصرة انما خططت فى الاسلام فى عهد عمر بن الخطاب ونزل بها العرب على منازلهم من يمنية ومضرية - ولكن يظهر أن المربد كان قبل أن تخطط البصرة، وكان قبل الأسلام؛ وربما فهم ذلك من قول الطبرى: «بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان فقال له انطلق أنت ومن معك حتى اذا كنتم فى أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم فأقيموا. فأقبلوا حتى اذا كان بالمربد وجدوا هذا الكذان قالوا ماهذه البصرة» (٢).

وقال فى اللسان - فى مادة ب ص ر - وقال ابن شميل: البصرة ارض كأنها جبل من جص وهى التى بنيت بالمربد وانما سميت البصرة بصرة بها».

ولكن أخباره فى الجاهلية منقطعة أو معدومة مما يدل على قلة خطره إذ ذاك، انما كان له الخطر بعد ان فتح العرب العراق وسكنوه وخططوا البصرة، فقد أنشئت فيه المساكن بعد ان كان مربداً للابل فقط. واتصلت العمارة بينه وبين البصرة (١) حتى قالوا فيه: «العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة، ودارين عين المربد» (٢)

وقد كان المربد فى الاسلام صورة معدلة لعكاظ، كان سوقا للتجارة، وكان سوقا للدعوات السياسية، وكان سوقا للأدب - جاء فى كتاب «مايعول عليه» المربد كل موضـــع حبست فيه الابل... ومنه سمى مربد البصرة لاجتماع الناس وحبسهم النعم فيه - كان مجتمع العرب من الأقطار، يتناشدون فيه الأشعار؛ ويبيعون ويشترون وهو «كسوق عكاظ» وقال العينى: «مربد البصرة .... محلة عظيمة فيها (فى البصرة) من جهة البرية، كان يجتمع العرب فيها من الأقطار و يتناشدون الأشعار ويبيعون و يشترون» (٣)

وليس يهمنا هنا أثره التجارى؛ وانما يهمنا أثره السياسى والادبى، وهما مرتبطان بعضهما ببعض أشد الارتباط. فلا داعى للتفريق بينهما؛ فقد كانت الأحزاب السياسية تنتج أدباً من خطب وشعر، وكانت الخطب والشعر تقوى الأحزاب السياسية وتساعد فى تكوينها والحروب بينهما.

المربد فى عصر الخلفاء الراشدين

كانت أهم أخبار المربد فى ذلك العصر ما كان بعد قتل عثمان ابن عفان من سير عائشة أم المؤمنين الى البصرة، فانها نزلت بفناء البصرة ورأت أن تبقى خارجها حتى ترســـل الى أهلها تدعوهم بدعوتها، وهى المطالبة بدم عثمان، وبعبارة أخرى الخروج على علىّ؛ وكان معها طلحة والزبير، ثم سارت الى المربد معهما وخرج اليها من قبل دعوتها؛ وخرج الى المربد كذلك عامل علىّ على البصرة، وهو عثمان بن حنيف ومن يؤيده، وأصبح المربد وهو يموج بمن اتى من الحجـــاز ومن خرج من البصرة، حتى ضـــاق المربد بمن فيه؛ ورأينا المربد مجالا للخطبـــاء ممن يؤيد عائشة

(١) لسان العرب فى ر ب د ومعجم ياقوت فى مربد (٢) تاريخ الطبرى ١: ٢٦٦١

(١) معجم ياقوت فى مادة مربد (٢) عيون الاخبار ٢: ٢٢٢

(٣) عقد الجمان مخطوط بدار الكتب جزء ٤ — ٩٣

ومن معها ، ومن يؤيد عليا وعامله . أصحاب عائشـــة فى ميمنة المربد وأصحاب على فى ميسرته ؛ ويخطب فى المربد طلحة ويمدح عثمان بن عفان ، ويعظم ما جنى عليه ويدعو الى الطلب بدمه ، ويخطب الزبير كذلك وتخطب عائشة أم المؤمنين بصوتها الجهورى ويؤيدهم من فى ميمنة المربد ، ويقولون صدقوا وبروا وقالوا الحق وأمروا بالحق ، ويؤثر قول عائشة فى أهل الميسرة فينحاز بعضهم اليها ويبقى الآخرون على رأيهم وعلى رأسهم عثمان بن حنيف ، ويخطبون كذلك يبينون خطأ هذه الدعوة وأن طلحة والزبير بايعا عليا فلا حق لهما فى الخروج عليه ، ويؤيدهم أبو الأسود الدؤلى وأمثاله (١)

وهكذا ينتقل المربد الى مجمع حافل ، فيه الدعوات السياسية مؤيدة بالحجج والبراهين وفيه معرض البلاغة من خطب طويلة وجمل قصيرة متينة ، وفيه الجدل والمناظرة وبحث أهم الاحداث فى ذلك العصر ، وهو مقتل عثمان بن عفان ، وتحديد المسئولية فى قتله - ولم تفد هذه الحرب اللسانية فانتقلت الى حرب بالسلاح وأصبح المربد ساحة للقتال .

المربد فى عهد بنى أمية

كان العصر الأموي ازهى عصور المربد ، ذلك لأن العرب كانوا قد هدءوا من الفتح وأستقرت الممالك فى أيديهم ، وأصبح العراق مقصد العرب ، يؤمه من أراد الغنى وخاصة البصرة ، جاء فى الطبرى « ان عمر بن الخطاب سأل أنس بن حجية وكان رسولا الى عمر من العراق فقال له عمر : كيف رأيت المسلمين ؟ فقال انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة ، فرغب الناس فى البصرة فأتوها » وكان المربد باب البصرة يمر به من أرادها من البادية ، ويمر به من خرج من البصرة الى البادية ، ويقطنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن ، ويقصده سكان البصرة يستنشقون منه هواء البادية ، فكان ملتقى العرب ، وكانوا يحيون فيه حياة تشبه حياة الجاهلية من مفاخرة بالأنساب وتعاظم بالكرم والشجاعة ، وذكر لما كان بين القبائل من أحن ، فالفرزدق يقف فى المربد ينهب أمواله فعل كرماء الجاهلية « حكى فى النقائض أن زياد بن أبى سفيان كان ينهى أن ينهب أحد مال نفسه ، وأن الفرزدق أنهب أمواله بالمربد ، وذلك أن أباه بعث معه ابلا ليبيعها فباعها وأخذ ثمنها فعقد عليه مطرف خز كان عليه ، فقال قائل لشد ما عقدت على دراهمك هذه ، أما والله لو كان غالب مافعل هذا الفعل فحلها ثم أنهبها ، وقال من أخذ شيئا فهو له ، وبلغ ذلك زيادا فبالغ فى طلبه فهرب .... فلم يزل فى هربه يطوف فى القبائل والبلاد حتى مات زياد (١)

وكان الأمويون على وجه العموم - يعيشون عيشة عربية ويحتفظون بعربيتهم ، إن أخذوا شيئا من الحضارة صبغوه بصبغتهم وحولوه الى ذوقهم وكذلك فعل عرب البصرة ، أرادوا أن يكون لهم من مربد البصرة ما كان لهم من سوق عكاظ فى الحجاز فبلغوا غايتهم . وأحيوا العصبية الجاهلية . وساعد الخلفاء الأمويون أنفسهم على احيائها لما كانوا يستفيدون منها سياسيا ، فرأينا ظل ذلك فى الأدب والشعر ، ورأينا المربد فى العصر الأموى يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون . ويعلى كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسى ، ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية .

ومن أجل هذا خلف لنا المربد أجل شعر أموى من هذا النوع - فكثير من نقائض جرير والفرزدق والأخطل كانت أثراً من أثار المربد قيلت فيه ، وصدرت عما كان بينهم من منافرة وخصومة . يروى الأغانى أن جريراً والفرزدق اجتمعا فى المربد فتنافرا وتهاجيا وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل الخ فى خبر طويل . (٢)

كان كل من جرير والفرزدق يلبس لباسا خاصاً ويخرج الى المربد ويقول قصائده فى الفخر والهجاء ، والرواة يحملون الى كليهما ماقاله الآخر فيرد عليه . قال أبو عبيدة « وقف جرير بالمربد وقد لبس درعا وسلاحا تاما وركب فرسا أعاره اياه أبو جهضم عباد بن حصين . فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشى وسوارا وقام فى مقبرة بنى حصن ينشد بجرير والناس يسعون فيما بينهما باشعارهما فلما بلغ الفرزدق لباس جرير السلاح والدرع قال :

عجبت لراعى الضـأن فى حطميـة
وفى الدرع عبد قد أصيبت مقاتله

ولما بلغ جريرا أن الفرزدق فى ثياب وشى قال :

لبست سـلاحى والفرزدق لعبة
عليه وشـاحا كرج وجلاجله (٣)

وما زالا كذلك يتهاجيان ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة حتى ضج والى البصرة فهدم منازلهما بالمربد فقال جرير :

فما فى كتـاب الله تهـديم دارنا
بتهـديم ماخور خبيث مداخله (٤)

(يتبع)

(١) انظر القصة بطولها فى الطبرى جزء ١ ص ٢٥٣١ طبع أوربا وفيه بعض ماقيل من الخطب فى المربد فى ذلك اليوم

(١) النقائض ٦٠٧ و ٦٠٨

(٢) الاغانى ٤ - ١٣٢

(٣) النقائض ٦٢٤

(٤) النقائض ٦٨٣

مِنْ طرائفُ الشِّعرُ

مداعبات شوقيـــة لم تنشر

قصيدة أخرى لم تكمل ، قيلت فى مكسوينى حصان الدكتور محجوب ثابت أيام الثورة المصرية حين كان الدكتور يرتاد (بار اللوا) وجريدة الأهرام .

تُفَدّيك يامكسِ الجيادُ الصلادمُ
وتَفدى الأُساةُ النُطسُ من أنت خادم
كأنك ان حاربت فوقك عنتر
وتحت ابن سينا أنت حين تسالم
ستُجزى التماثيل التى ليس مثلها
اذا جاء يوم فيه تُجزَى البهائم
فانك شمسٌ والجياد كواكب
وانك دينار وهنّ الدراهم
مثال بساح البرلمان منصَّب
وآخر فى (بار اللوا) لك قائم
ولا تظفر (الاهرام) إلا بثالث
مزاميرُ داود (١) عليه نواغم
وكم تدّعى السودانَ يامكسِ هازلاً
وما أنتَ مسوَدٌ ولا أنت قاتم
وما بك مما تبصر العين شُهبة
ولكنْ مشيب عجّلته العظائم
كأنك خيل الترك شابت متونها
وشابتْ نواصيها وشاب القوائم
فيا رُبَّ أيام شهِدتَ عصيبة
وقائعها مشهورة والملاحم

. . . .

وهذه قصيدة أخرى لم تكمل قيلت فى الدكتور محجوب أيام الثورة أيضاً والشاعر يشير فيها الى ألفى جنيه كان الدكتور قد اكتنزها وحرص عليها فى بنك حسن باشا سعيد

قل لابن سينا لا طبيـ   ـب اليوم الا الدرهم
هو قبل بقراط وقبـ   ـلك للجراحة مرهم
والناس مذ كانوا عليـ   ـه دائرون وحُوَّم
وبسحره تعلو الأسا   فل فى العيون وتعظُم
يا هل ترى الالفان وقـ   ـفٌ لا يمس ومَحرم
بنك السعيد عليهما   حتى القيامة قيم
لا شيك يظهر فى البنو   ك ولا حوالة تُخصم
وأعفّ من لاقيت يلـ   ـقاه فلا يتكرّم

. . . .

الغــريب

للشاعر الوجدانى الرقيق أحمد رامى

يانسيم الفجر ريّانَ الندى
ما الذى تحمل من أرض الحبيب ؟
فرح الكون بلقياه غدا
والأسى غيْمانُ فى عين الغريب
غرّد الطير وغنى
كل إلف يتهنى
وانا قلبىَ حنا
أرسلَ الشكوى وأنا
آهـةٌ تترى مقـلة شَكْرَى
تبصر الاحباب من بين الدموع
رائح منهم وغادِ
وترى بالظن أيام الربيع
لخيالى وفؤادى
يا نسيم الفجر
نادياً بالزهرْ
رَنم الدوح ورَن الجدول
وسرَتْ فى الجو أنفاس العبير
وبدا النور فصاح البلبل
داعياً للشدْو أسرابَ الطيور
والنجوم فىَ الغيوم
لبست منها نقاب

(١) ربما يقصد الشاعر التورية بالأستاذ داود بركات رئيس تحرير الاهرام .

والشـــفق في الأفق
لونه وردٌ مُذاب
كل ما في الكون بشرٌ وهنا !
وأنا ؟
أنا مازلت غريباً مفردا
في ديار عزّني فيها الحبيب
فرح الكون بلقياه غدا
والأسى غيمانُ في عين الغريب

احساساتي

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

قال الأستاذ حفظه الله من كتاب خاص :

نزلت قبل أسبوعين تقريباً من السيارة عند باب السوق . أريد مقابلة أحد الكتبيين فسقطت مغمى عليّ . فحملوني في عربة الى داري . وبعد انتباهتي قلت لعل يومي قد اقترب ، ونظمت قصيدة « احساساتي » ورجحت نشرها في رسالتك الغراء . . . .

قد أنَى(١) يا مَنيَّتي أن تعودي ... بي الى حيث كنتُ قبل وجودي
حيث لا أقتني شعورا يُريني ... كيف أدنو للفوز بالمقصود
حيث لا نبضَ في عروقي ولا ضر ... بَ لقلبي ولا حَراكَ لعُودي
هوِّني يا نفسي فَعلَّكِ تَسْطيـ ... عين عن هُوَّة الردى ان تحيدي
ليت أن الحياة ترجع في يو ... مٍ الى جسم الميِّت الملحود
ليس من هذا الموت يا نفسُ بدٌّ ... فهوَ للناس من تُراث الجدود
يا امانيّ فارقيني ويا نفـ ... سُ وَدَاعاً ويا حُشاشةُ جُودي
بعـــدَ أيام قد تقاربن مني ... انا يا نفسي لا محالة مُودي
وسواء عليّ من بعد موتي ... ان تبيدي معي وألاّ تبيدي
وسواء أكنتُ أحيا سعيداً ... قبل موتي أم لم أكن بسعيد
واذا كنتِ لا تبيدين، نفسي، ... تبعاً لي فاستبشري بالخلود
واذا الشيخ بات يشكو الوَنَى والـ ... وهنَ فالموت عنه غيرُ بعيد
سيقولون شاعر غاب في اللحـ ... د وكم غاب مثله في اللحود !
لاتخافي عليّ فالموت سهل ... لا كما ينعتونه بشـــديد
لاتخافي، فالموت ليس على الار ... ض ولا في سمائها بجديد
سبقتني الى المقابر موتى ... أنا في الراحلين غيرُ وحيد

(١) أني : قرب

من قضى نحبَه فنام بقبر ... لا يبالي طولَ الليالي السود
غير اني ما إن سئمت حياتي ... وهبوطي وهادَها وصعودي
فأرى راحة بقبري وان نا ... لت على وجه الارض مني جهودي
اننا ـ والفراق صعب ـ سننفض ... الى غير ملتقى وشهود
جمع الدهر حِقبْة شملنا ثمْـ ... مَ رمته يداه بالتبديد
مابلغنا من اللبانات يا نفـ ... سي سوى النزر بعد َجهد جهيد
انت يا «ليلى» كنت ماثلة لي ... كلَّ يوم في يقظتي وهجودي
انا ماض الى لقاء المنايا ... بِخُطًى ليس مشيها بوئيد
عانقيني قبل النوى لوداعي ... وضعَي الجيدَ ساعة فوق جيدي
وانظريني بأعـين باكيات ... ترسل الدمعَ مثل دُرٍ نضيد
لهفَ نفسي على صُبابة عيش ... هو لولاكِ لم يكن برغيد
أبِّنيني يا نفس فوق ضريحي ... بقواف رقيقة وأعيدي
غن لي يا هزار أغنيَّة النو ... م على قبري كي يطيب رقودي
ولعلَّ الصبا تمر رخاءً ... فوق ملحودتي فتنعش عودي !
لستُ أدري أللفناء سنمضي ... بعد ما قد نموت أم للخلود ؟
حبذا لو حظيت من بعد موتي ... بحياتي التي انتهت من جديد !
انني في شك وان ملأ واسمـ ... عي بوعد يروونه ووعيد
لا تثق بالجمهور يا عقل يوما ... ان رأي الجمهور غير سديد !
ولعلي رجوت ما ليس يرجى ... ولعلي حمدت غيرَ حميد
بعد نومي على فراش وثير ... عن قريب أنام في أخدود
لا أنيس ولا نسيم ولا نو ... رٌ يزيل الظلام من ملحودي(١)
آه يا نفس إن ذلك سهل ... لو نسينا ما فيه من تجريد
يوم لا نبصر الربيع ولا نصـ ... غي لانغام البلبل الغرِّيد
شاعر الروض يرسل الشدو شجواً ... جاثماً فوق ناعم أملود
يوم لا تطلع النجوم علينا ... باسمات من السماء كخُود
يوم لا يسفر الصباح لنا من ... جانب الشرق قائماً كعمود
يوم أيدي الردى تجردني من ... كل مالي من طارف وتليد

....

أنا يا صحبي واحدٌ كنت منكم ... فاذكروني ولا تناسوا عهودي
أنا في قبري اليوم عنكم بعيدٌ ... وانا عنكم فيه غيرُ بعيد.
خير قبر يسقى تراب حفيري ... هو يا صحبي عَبرة من ودود
واذا كان للفقيد بقلب ... خافق مثوى، فهو غير فقيد
ولعل البكاء غير مُسَلٍّ ... ولعلَّ البكاء غير مفيـــد

....

تأكل الارضُ كل حيٍّ فلا تُبـ ... قي على والدٍ ولا مولود

(١) الملحود كناية عن القبر

اسألوها هل امتلأت تقل من ... شره في الجواب، هل من مزيد؟
أمم كلها تبيد فتأتي ... أمم أخرى بعدها للبيود
سوف يقفو ركب الى الموت ركباً ... ثم لا أشدو خلفه بنشيدي
انني ان أهلك فمن لقريضي ... يتغنى به ومن لقصيدي ؟

....

حشروني والجامدين، على ما ... أخذوا من آبائهم، في صعيد
إنني منذ كنت أشدو بشعري ... كان يوحى الي بالتجديد
أنا لا أدعي الزعامة فيه ... غير أني أبث فيه وجودي
قلت شعرا فكاد يأكل لما ... سمعوه كالنار قلب الحسود
فدعوني مقلدا ينظم الشعـ ... ـر كما كان في زمان الرشيد
كذبوا انني الى اليوم ما قلـ ... ـدت غيري، مالي وللتقليد؟
حبذا الليـل والنهار بعيني ... انني مغرم بكل جديد
وجديد القريض قرب معانيـ ... ـه وبعد له عن التعقيد
وشعور كأنه فلق الصبـ ... ـح اذا فاض ضوؤه من بعيد
لا ترد للشعور مني حداً ... فهو شيء يسمو عن التحديد
حبذا النقد لم يكن حين يغزو ... نائلاً من كرامة المنقود

....

لا أغالي، فربما قلت شعرا ... لم أكن في قرضي له بالمجيد
ليس في الارض شاعر قد نجا في ... كل ما قاله من التفنيد
منه بكر يطري، ومنه عوان ... لم تحز رتبة الكعاب الخريد
قلته لاهيا به في شبابي ... من هموم الهوى وبرح الصدود
يوم للغيد كنت أصبو ومن ذا ... ليس يصبو الى الحسان الغيد؟
ثم أرهفته فكان سلاحي ... ثم غنيته فكان نشيدي
ثم صيرته مجنا يقيني ... في «فروق» من شر عبد الحميد
ثم أودعته حقائق تسمو ... فأتى جامعاً لكل مفيد
حكم تهدم التقاليد قد كا ... نت تراعى من أهلها للجمود
عاب في الروض العندليب غراب ... قائلاً صه فانت غير مجيد
فمضى العندليب في شدوه غيـ ... ـر مبال بقول ذاك البليد
قائلا ليس للغراب بروض ... زهره الغض باسم اغرودي
انا للورد قد تفتح أشدو ... فهو إن أصغى تم لي مقصودي
يممي يا نفسي السماء فاني ... لا أرى في الثرى طريق الخلود
هي ممتدة لغير تناه ... وهي منبثة لغير حدود
اهتدي بالشعرى وبعد خفاها ... من بياض للفرقدين استفيدي
انما تخشين ضلالك في تلـ ... ـك المحاني الكثيرة التجعيد
لا تهابي فلست أول روح ... وغلت في هذا الفضاء المديد
لا تهابي فأنت يا نفس بعدي ... مثل صمصام ليس بالمغمود
ربما جاءوا يمنعونك فيها عن ... وصول الى المقام الحميد
انهم قد يثبطونك عنه ... بشهاب يلقونه من بعيد
فاصدميهم بما لديك من القو ... ة في صولة الكمي العنيد
واذا ما قسوا عليك فلاقيـ ... ـهم بقلب أقسى من الجلمود
واذا ما والوك فيها فوالي ... واذا ما عدوا عليك فذودي
ولقد كان الحق في كل جيل ... ضائعاً بين سائد ومسود
ان تلك السماء كالأرض هذي ... حومة تدمى للكفاح الشديد
لا يخيفنك اللقاء بحرب ... هي بالنار تلتظي والحديد
أنت حاربت للتحرر أعوا ... ما طوالاً فحاربي من جديد
انت في الارض ما تطأطأت حتى ... تخضعي في السماء أو تستقيدي
إنما أنت للتمرد لا للـ ... ـخسف والرسف في ثقال القيود
واذا ما لاقيت سداً منيعاً ... فاخرقيه بجرأة الصنديد
أسرعي واجتازي عوالم تحشو ... سدماً قد أسرفن في التحشيد
مسرعات الى التوسع لا ير ... ضين الا اخذ المكان البعيد
ليست الطالعات يفجأن، الا ... رسلا جئن من وراء الوجود
إنما مستقر قافلة الأر ... واح في غير العالم المشهود
للذي يبتغي الولوج جريئا ... ليس باب السماء بالمسدود
انت روح ترقى الى حيث شاءت ... لا حجاب لها عن التصعيد
لا تخافي هلكا من الضرب فيها ... أنت روح والروح ليس يمود
انما العز من نصيب الذي يجـ ... ـرأ والذل حصة الرعديد
أنت أن تعزمي يهن كل صعب ... لا ينال المراد غير المريد

....

أحمد البارىء الذي يتساوى ... عنده ايماني به وجحودي
قيل ان الشهيد يحيا لدى الربـ ... ـب فمن ذا في الارض غير شهيد؟
انما هذه حقائق صرحـ ... ـت بها صادعا بلا تمهيد
فاسمعيها ولا تبوحي بها للـ ... ـملأ الأعلى حول عرش المجيد
كلنا مؤمن يسبح للرحـ ... ـمن في ظل عرشه الممدود
انني ما سجدت يوما لغير الـ ... ـله فالله وحده معبودي
اسأل الله ان يخفف سجني ... في حفيري وأن يفك قيودي
وسلام عليك يوم فراقي ... وسلام علي يوم همودي

بغداد — جميل صدقي الزهاوي



الذئب فى الأدبين العربى والفرنسى (١)

— ٢ —

قص علينا الشاعر الفرنسى « الفرد ده فينى » حديث المعركة التى نشبت بينه وبين الذئب، وانتهت بموت الذئب ميتة سكينة وطمأنينة، بعد أن تظاهر عليه أربعة من الرجال ببنادقهم ومُداهم، يشد ازرهم فى هذه المعركة كلب من الكلاب الضارية، سقط هو قتيلا، وأنياب الذئب الحادة فى عنقه قبل أن يسقط الذئب قتيلا برصاص بنادق الصائدين ومداهم

فصور لنا فى هذه الحكاية صورة واضحة تمثل إقدام الذئب وجرأته، وثبات الأم ورصانتها، تستبقى لتعلم أولادها تحمل الجوع، وتحيا لتحذرهم من احتمال الخضوع. وتمثل كذلك احتقار الذئب للحياة وزرايته بها، فقد تركها بعينيه الواسعتين، وأستودعها بنظرتين قويتين، أولاهما الى اعدائه، وثانيتهما الى أعضائه، ثم اغمضهما ومات ميتة جبار، بل أستاذ فى الجبروت يحق أن يتتلمذ عليه «فينى» ليلقى عنه هذا الدرس الأخلاقى. فكيف كان أمر شعرائنا مع ذئابهم ؟ . .

ذئب الفرزدق :

كان كل ماعرضه علينا الفرزدق من حديثه مع ذئبه أنه عشاه وصرفه :

وأطلس عسال وما كان صاحباً	دعوت لنارى موهناً فاتانى
فلما دنا قلت أدن دونك أننى	وأياك فى زادى لمشتركان
فبت أقدُّ الزاد بينى وبينه	على ضوء نار مرة ودخان
فقلت له لما تكشر ضاحكا	وقائم سيفى من يدى بمكان
تعش فان عاهدتنى لاتخوننى	نكن مثل من ياذئب يصطحبان
وانت امرؤ ياذئب والغدر كنتما	أُخيين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى	أتاك بسهم أو شباة سنان
وانا لترعى الوحش آمنة بنا	ويرهبنا إن نغضبِ الثقلان

لا نريد بذلك الا أن يدلنا على ماعنده من كرم وسخاء، وشجاعة عند اللقاء، لا يصرفه عن طعامه أقبال الذئب عليه ووقوفه بين يديه، فهو الذى قدَّ بينه وبينه الزاد، وأناله منه ماأراد، مع أنه يعرف ماللذئب من طبيعة الفتك والغدر، ولكنه يعتمد على ساعد قوى وسيف باتر.

فقصيدته اذن قصيدة بدوية ليس فيها غير التمدح بالكرم والشجاعة، والجمال الفنى فيها قليل.

ذئب البحترى

أما البحترى فقد قدم لنا قصة سينمائية جميلة عن نفسه وذئبه :

وأطلس ملء العين يحمل زوره   واضلاعه من جانبيه شوًى نَهْدُ
له ذنب مثل الرِّشاء يجره   ومتن كمتن القوس أعوج منأدُ
طواه الطوى حتى استمر مريره
فما فيه ألا الروح والعظم والجلد
يقضقض عُصْلاً فى اسرتها الردى
كقضقضة المقرور أرعده البرد
سما لى وبى من شدة الجوع مابه
ببيداء لم تُعرف بها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه
بصاحبه، والجد يتعسه الجد
عوى، ثم أقعى فارتجزت، فهجته
فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فأوجرته خرقاء تحسب ريشها
على كوكب ينقض والليل مسود
فما ازداد الا جرأة وصرامة
وأيقنت أن الأمر منه هو الجد
فاتبعتها أخرى فاضللت نصلها
بحيث يكون اللب والرعب والحقد

(١) انظر العدد الثانى عشر من الرسالة ص ٢٩

فخر وقد اوردته منهل الردى
على ظمأ لو أنه عذب الورد
وقمت فجمّعت الحصى فاشتويته
عليه وللرمضاء من تحته وقد

فأرانا ذئبه رؤيا عين، فى لونه الأطلس، ومتنه الأعوج المقوس، وجسمه المنهوك، وعظامه المقضقضة، حتى ملأ قلوبنا رهبة منه، وخوفاً على صاحبه، ثم صور لنا المعركة التى نشبت بينهما حتى كأننا نراها، وكما أنه أجاد فى تصوير تلك المعركة وابرازها الينا محسوسة مشهودة، لم يقصر فى تصوير جرأته وجرأة ذئبه، واستماتة كل منهما فى الذب عن نفسه والغيلة على عدوه، حتى جعلنا نؤمن بعظمته وعظمة ذئبه.

كل ذلك فى قوالب متينة محكمة فى وضوح وجلاء، وفن بديع مونق يملأ البصر والبصيرة، ولعله قد وفق فى هذا شعراً إلى مالم يوفق اليه أديب نثراً.

ذئب الرضى :

اما ذئب الشريف الرضى فانه ذئب البحترى نفسه، وأما الرضى فانه أبو عبادة :

وعارى الشوى والمنكبين من الطوى
أتيح له بالليل عارى الاشاجع

أغبر مقطوع من الليل ثوبه	انيس باطراف البلاد البلاقع
قليل نعاس العين الا غيابة	تمر بعينى جائم القلب جائع
اذا فات شىء سمعه دل أنفه	وان فات عينيه رأى بالمسامع

تظالع حتى حك بالأرض زوره
وراغ - وقمد روعته - غير ظالع

ولما عوى والرمل بينى وبينه	تيقن صحبى أنه غير راجع
تأدب والظلماء تضرب وجهه	الينا باذيال الرياح الزعازع
له الويل من مستطعم عاد طعمة	لقوم عجال بالقِسِى النوازع

أخذٌ ظاهر، وانتحال بين، وهو مع ذلك قد أفاض على حديثه من جمال الفن ما كاد ينسينا حديث أبى عبادة، فلئن فاته حسن تصوير البحترى للمعركة فلم يفته حسن اجمالها وتصويرها فى صورة صغيرة فى بيت واحد :

له الويل من مستطعم عاد طعمة لقوم عجال بالقسى النوازع

دل به على جرأة فى مبتداها، وظفر بالعدو فى منتهاها.

***

فاذا وضعنا القصة الفرنسية الحديثة بجانب القصة العربية القديمة وجدنا الفرق بينهما جلياً واضحاً، فالقصة العربية كل الغرض منها التمدح بالكرم والعطاء، والأفتخار بالثبات عند اللقاء، وما هذه الصورة المخيفة التى صور بها الذئب الا لينفذ منها الشاعر الى ما يريد من مدح نفسه بالشجاعة فليس فيها صورة خاصة لموت الذئب وساعة نزعه ؛ بل ان الشريط لينقطع عند خبر موته، لأنه لا يهم هؤلاء الشعراء الأسترحام عليه، أو الرثاء له، فهو عدو غدار نال حتفه بسيف الشاعر البتار وكفى، فليس بين موت ذئابهم اذن وموت أى حيوان فرق.

وأما القصة الفرنسية فهى على وحدة موضوعها وصورة ذئبها الخالدة التى ما تبرح مخيلة القارىء، ولا تنفك تعاوده كلما ذكر الذئب، سامية الغرض جليلة المغزى نبيلة القصد، فالغرض منها اجتماعى تَرْبَيَوى ذو شأن، فهو يريد أن ينبه القارىء الى مايجب عليه من أجابة دعوة القدر بهدوء وسكون، وتلبية نداء الموت فى سبيل الواجب برزانة وصمت، لأن الصمت هو العظمة، والبكاء والأنين وأشباههما جبن ونذالة.

فقصيدة «فينى» إذن مجلية فى الحلبة التى أنشأناها، وهى وحدها تقرب من المثل الأعلى، لأن العقلية غير العقلية والعصر غير العصر وثقافة «فينى» غير ثقافة هؤلاء الشعراء.

سامى الدهان



كيمياء الروح

للدكتور احمد زكى

الكيمياء علم طوّاف جوّال سلك من العالم مسالك لم يدانه فى سلوكها علم ، و نزل من الأرض منازل لم ينزل فى مثلها عرفان ، فطورا تراه فى البلقع الأجرد ينقر الصخر و ينكت فى الترب يستخرج معادنه و يتعرف جواهره، وطوراً تراه فى الريف الأخضر يطعم النبات بالقوت الأنسب و يسقيه بالقدر الاوفق، واذا مرض طبّبه بصنوف الأدوية وحماه من الحشَر بشتيت العقاقير ، وطوراً فى المدينة فى الحديقة الفسيحة . وفى الجنينة الصغيرة الأنيقة يُعنى بزهرها و وردها و بنفسجها ، أو بعنبها و تفاحها و برتقالها و يوسفيها، عنايته بسنبلة القمح ولوزة القطن فى الحقل فى ظاهر البلد ، وتجده فى البيت إما فى المطبخ قد سبق الطاهى اليه لا بصنوف الاطعمة المستطابة فحسب بل بالآنية والنار ، وإما لدى غانية الدارجلس فى متزينها ينتظرها بدقيق الأرز ودهن الحيوان وزيت الازهار وصبغة الارض ترطب بها جلداً وتورد خداً وتصبغ رمشاً وتزجّج حاجباً ، ويغنيك عن هذا التعداد المفصل أن تسير فى كل حجرة من حجر البيت ، وتنظر الى كل ركن من أركانه ، بل الى جدران هذه الحجرات وسقوفها وأرضها ، فلن تجد شيئاً فيها لا تدخله الكيمياء . كذلك تجد علم الكيمياء فى الشارع وفيما فيه من ذى حركة أوسكون ، وفى المصنع تصنع فيه الابرة الصغيرة أو القاطرة الكبيرة ، وفى المستشفيات وفى المقابر ، وفى كل مظهر من مظاهر المدنية ومظاهر الحياة من مأكول وملبوس ومركوب ، وكذلك فى مظاهر الموت .

ولهذا الاتساع انقسمت الكيمياء الى أقسام عدة: فالكيمياء العضوية وغير العضوية والكيمياء الطبيعية والهندسية والحيوية وهلم جرا . ولكن كل هذه موضوعها المادة ، موضوعها الاجسام الملموسة الموزونة ، سواء فى ذلك الاجسام الجامدة والاجسام الحية، وهى اذا عالجت الأجسام الحية فهى لا تعنى أو لم تكن تعُنى — الا بمادتها الصامتة وهيُولاها الجامدة دون حياتها وروحها . ولكن العلم طموح ، والكيمياء علم ، فكان من هذا أن بدأت تطمح الى ما طمحت اليه وعجزت عنه القرون ، تطمح الى لمحة وراء المادة ، ونظرة تختلسها من خلف ذلك الحجاب الأزلى الكثيف الذى فصل ما بين الأجسام وأرواحها ، تطمح الى تفهم العقل ، لا من حيث الخلايا المخية التى هى مركزه ، بل من حيث هو اسم لكل مظاهر الذكاء والغباوة والحب والبغض والغضب والحلم واليقظة والنوم. فتكوّن من ذلك أو كاد يتكون علم جديد لا أجد اسما أنسب له من « كيمياء الروح »

وطريقة هذا العلم الجديد كطريقة كل علم ، يبدأ بالمعلوم ليتعرف المجهول . والمعلوم هنا الجسم والمجهول النفس ، فهو يُحدث تغيرات فى الجسم ويرقب أثرها فى النفس . وليست علاقة الجسم بالنفس بجديدة ، فقديما عرفنا الصيام يشحذ الفكر الى حين ، والطعامَ الكثير يثلمه حتى يسلم صاحبه الى النوم . وسمعنا الفلاسفة والمفكرين فى قديم الأزمان يعافون الطعام رغبة فى صفاء البصيرة وجلاء الذهن . ونسمعهم اليوم يترسّمون فى ذلك سنة السلف ، فغاندى يعيش على اللبن والبرتقال ، واينشتين يَقنع من اليوابس والسوائل بالقليل الميسور الذى لا يُقنع الولد الصغير . ولكن هذه ملحوظات يلحظها الانسان عفوا وهو لا يدرى أين يلحظها ولا متى ، وان هى حانت فهو لا يتعمد لحظها الا إذا ملكت عليه انتباهه. ولكن هذا العلم الجديد ينتظر الحوادث ويجثم على مرقب

عال طلبا للفرص التي قد تمر، وهو إلى جانب هذه الحوادث وتلك الفرص السانحة يخلق لنفسه الحوادث ويفتتح مواطن للتجارب يكون هو العامل الأكبر في إحداثها، والمهيمن الأول على إدارتها وتوجيهها

جاءت الحرب العالمية فأجاعت كثيرا من الخلق في الأمم المختلفة، وكان من أشدهم جوعا ألمانيا، وكان من أشد أهلها تأثرا بذلك أطفالها، فتهيأت الفرصة للبحث، فجاء هذا العلم يبحث في الغذاء الذي كانت تتعاطاه تلاميذ المدارس أيام السنوات العجاف، في مقداره وفي نوعه وعناصره، ويبحث بعد ذلك لا في أثر ذلك في أجسامهم فحسب، بل في أثره في عقولهم ونفسيتهم وروحهم. لا اجمالا بل تفصيلا، فعاهات النفس كعاهات الجسم، وخلل الروح كخلل المادة التي تتقمصها، أي أنهاما تختلف في الكيف كما تختلف في الكم، ولكل عاهة اسم ان كان الآن فيه كثير من الابهام، فانه ابهام ينجلي لا شك بطول البحث وكثير من الأناة والجلد. وخرج العلم من هذا البحث على أن أربعين في المائة من التلاميذ فقدوا مقدارا كبيرا من طاقتهم العصبية العامة بسبب فقدهم عناصر هامة في الطعام، وخرج على أن اختلافات خاصة في الشخصية وتغيرات محدودة في الطبع ترتبط بنقص في بعض جواهر الغذاء الذي كان. ومن النتائج التي خرجوا عليها علاقة بينة بين مرض عصبي خاص، مظهره اضطراب وخوف، وبين خلو الطعام من الشحوم الفسفورية والاحماض الدهنية غير المشبعة، ومن الاستيرولات. وليس معنى هذا أن هذه الشحوم مفيدة دائما في كل مرض. فقد درس شارل مرسيه عالم الاعصاب الانجليزي المعروف عدة من المرضى بعقولهم فزاد غذاءهم من الشحم والسكر والنشا ونقصه من اللحم فوجد ان الجمع بين هذه الزيادة وهذا النقص زاد المرضى سوءا على سوء. ولم يجد هذا هو الحال في كل المرضى، دليلا على أن المرض يختلف، ولو جمع المرضى ظاهر واحد نسميه الجنون. على أننا قديما قلنا الجنون فنون

ومن الدراسات الأحدث أثر «الفيتامينات» في نفسية الاصحاء. «والفيتامينات» طائفة من المواد الكيمياوية موجودة بالطبيعة في كثير من الاغذية ولاسيما الفاكهة، ولتشابهها وتعددها أعطوها حروفا ا، ب، حـ وهلم جرا بمثابة اسماء لها. درسوا الأثر الناشيء من قلة الفيتامين حـ في الغذاء أو انعدامه فيه فوجدوه يسبب في النفس همودا تستتر وراءه حدّة في الطبع وقابليّة للتهيج شديدة. وهذه النتيجة تتفق تماما مع ما لاحظه رواد القطب الشمالي من المستكشفين لما قلت مواردهم وخف زادهم، وهو زاد قليل الفيتامينات أو عديمها بطبيعة الحال. فانهم كانوا دائما يجدون الكسل في نفوسهم وحب الشجار في قلوبهم، يثورون اليه للسبب الحقير التافه كانما يجدون فيه متنفساً من ضيق

وهناك نوع من الجنون يصحبه مثل هذا الهبوط في النفس، يعتري الرجل وقد اكتمل نموه وبلغت حيويته أقصاها. دخل هذا المرض في دائرة علم الكيمياء الروحي من سنوات قريبة واسترعى همة كثير من البحاث، وقد بدأوا يصلونه لا بخلل نفسي محض بل بخلل في الجسم واضطراب في وظائفه. أي أن ذلك العقل ساء لما ساءت كيمياء التربة التي انبثق فيها، وتلك الشخصية الوقورة ضاع اتزانها لما ضاع اتزان بين الغدد التي تهيمن في الجسم على دخل السكر اليه وخروجه منه واختزانه فيه. ومصداق هذا أن المرض الذي نحن بصدده يكثر في الأسر المصابة بالبول السكري، ولعل هذه الحقيقة هي أول ما لفت البحاثَ الى تلك الغدد ودرس وظائفها في هذا الصنف من المعتوهين

والنوم، ذلك الطلسم الذي أعيا سره الأولين والآخرين، بدأوا يسلطون عليه شعاعات من ذلك العلم الجديد لعلهم يردون أصله الى الكيمياء، وحديثا نشر (هرمان زندك) نظرية* بناها على دراسات مبدئية لم تنضج بعد، مؤداها ان الغدة النخامية، وموضعها بقاعدة المخ، بها مادة كيميائية تسمى بالهرمون. وهي واحدة من عدة مواد توجد في الجسم تسمى بالهرمونات، وهرمون هذه الغدة به عنصر البروم، فاذا بدأ النوم يخرج هذا الهرمون البرومي الى سائر المخ شيئا فشيئا حتى يضيع كله، فاذا استيقظ الانسان أخذت هذه الغدة تحشد البروم، حتى اذا تكون فيها بقدر معلوم أتى المرء النعاس، وخرج البروم يسير سيرته الاولى. بالطبع هذه النظرية في حاجة الى بحث كثير

من غير واحد لتأييدها ، ولـكنها اذا تأيدت واتضح لنا ان النوم ما هو الا محاولة الجسم أعادة اتزان كيميائى فى الرأس لـكان فى الامكان أحداث هذا الاتزان فى المعمل والاستغناء عن النوم، وبذلك يتضاعف عمر العامل المنتج .

لا نريد ان نعدد كل ماصنع هذا العلم ولا كل النتائج التى خرج عليها ولا الظنون التى لا تزال تساوره ولم تدخل بعد فى مضرب الحقائق ، فانه علم وليد ، ولـكننا نريد ان نؤكد العقيدة البارزة فى كل أعماله وهى ان مظاهر الروح الخارجيـة وثيقة الارتباط بالتفاعلات الـكيميائية للجسم الذى تسـكنه ، وان الأنسان اذا أنصت يفكر فى ضحولة أوعمق ، أو تكلم يقرع الحجة بالحجة ، أو اذا هو سر فضحك فزاط وقصف ، أو تجهم واكتأب فتجرع الحزن فى هدوء وصمت ، أو اذا هو أحب أو أبغض أو خاف أو تجرأ ، فانما يفعل ذلك بجسمه لا بروحه ، أو إن شئت فقل لا بروحه وحدها ، يفعل ذلك بالعقاقير الـكيميائية التى بدمه ولحمه وغدده وعصبه وخلاياه جميعا، وان هذه الانفعالات تسبب شـدتها وكثرتها اجهادا للمراكز الجسمية التى تصنع هذه العقاقير ، وأخص تلك المراكز الغدد التى تقوم بسبب العقاقير التى تفرزها بموازنات عـدة لتفاعـلات متناقضة شتى ينشأ من أختلالها اختلال الجسم والروح . ولا أدل على هذا من نظرة يلقيها المرء فى معترك الحياة التجارية فى هذه المدنيـــة الحاضرة حيث تتصارع قوى العيش الهائلة وتصطدم العواصف والآمال تصادم الجبال، أعنى بذلك البورصات ، فقد دل الاحصاء على ان عدد الأصابات التى سببها تلف يعترى تلك الغدد ، كالبول السـكرى وصنوف معروفة من الجنون ، يزداد بعد كل زوبعة من زوابع المضاربات .

وان كانت انفعالات الروح الطائشة تتلف معمل الجسم الـكيميائى الذى فى صلاحه صلاحها ، كان من الطبيعى اذا اعترى التلف الروح ـ ذلك السر المعجز ـ ان نبحث عن سبب هذا التلف فى حجرات المعمل ، وان نرد غازات كريهة نشمها ولا نراها تخرج من مداخن النفس ، الى الاسباب التى سببتها فى بوادق البناء وقواريره. وهذا عمل العلم الجديد ـ «كيمياء الروح»؟





الباسمة

قصة مصرية

للآنسة سهير القلماوى

لسانسييه فى الآداب

سكت القوم وكأنهم ينصتون الى نغم سماوى جميل . وكأن النغم قد حملهم من الأرض الدنسة الى السماء الطاهرة ، واستمرت هى فى عزفها تهز أوتار القلوب هزا ضعيفا مطربا ، ثم أتمت عزفها والتفتت الى السامعين فاذا كل منهم مشدوه ، الهاه الطرب وأنساه النغم أن يظهر اعجابه أو سروره . ورنت ضحكتها العذبة الجميلة فتنبه السامعون ودوى المكان بالتصفيق الشديد .

كنت فى السامعين ولم أكن أعرف عنها الا أنها عذبة الابتسامة وضاحة المحيا ، يشع من نفسها سحر عجيب يملأ ما حولها حياة فرحة نشيطة . سألت عنها فقيل أنها تتكسب بعزفها هذا لتعول طفلها الصغير الوحيد . ورحت أسأل عنها هذا وذاك فعرفت أنها شخصية فذة ، شخصية نادرة عجيبة . مات أبواها وهى فى سن الطفولة ، وفقدت أقرباءها واحدا وراء الآخر حتى فقدت زوجها منذ زمن يسير . ولكن الغريب من أمرها أنها برغم هذا كله كانت مبتسمة ومتفائلة دائما . لقد صغرت الدنيا فى عينها ولم يسلمها هذا الاستصغار الى الالم أو الحزن أو اليأس . فهى لم تكن يوما ما تؤمل من الدنيا شيئا حتى يخيب أملها فيها . ثم هى لا توقن بشىء من أمر آخرتها . كل ما تعرفه أنها تعيش وأن الحياة شىء بهيج يجب أن تستمتع بها كل الاستمتاع ، فمن يدرى لعل نهايتها قريبة ! بل لعل الوانا من العذاب تنتظرها بعد حين !

كانت شديدة الشغف بالطبيعة ، تخرج اليها كلما استطاعت تستنشق نسيمها واريج ازهارها ، وكانما تستنشق حياة جديدة فتزيد حيويتها ويزداد بشرها وسرورها .

منذ ذلك اليوم اصبحنا صديقين تزداد معرفة كل منا بالاخرى ، يوما بعد يوم ، فيزداد لذلك حبنا ويستوثق رباطنا . ولقد صحبتها فى بعض محاولاتها الاخيرة ، فقد حاولت لتزيد كسبها ان تطرق ميدان الادب ثم ميدان الرسم ثم ميدان التعليم فطرقتها جميعا واخفقت فى كل منها اخفاقا لاذنب لها فيه . ولكنها كانت ترجع من كل خيبة وكأنها أول الظافرين وآخرهم ! ثم لا يلبث فشلها ان يستحيل سريعا الى أمل جميل وعزم وطيد .

وفى ذات يوم مرض ابنها مرضا شديدا فعاونتها على علاجه والسهر على رغم أبائها ذلك على . وفى ليلة طاخية الظلام شديدة البرد اضطررت الى تركها بجانب وحيدها العليل . وفى الغد عدت اليها فوجدتها محمرة العينين تنفرج شفتاها عن ابتسامة ساخرة مرة مؤلمة . ترى ماذا حل بهذا الوجه الصبوح المستبشر الذى لم يقو الدهر على قلب ابتسامته أو تشويهها ؟ واتجه نظرى أولا الى الطفل ماذا حل به وأين هو ؟ وأخيرا علمت أن طفلها الوحيد الذى كان يربطها بالحياة فارق الحياة أمس مساء . فانهمرت دموعى على رغم ما حاولت من حبسها واحسست بفراغ حولى وكانما نار الهبت رأسى وعينى ، فاخذت أبكى وابكى وظلت هى تكفكف عبراتى وتواسينى وكأنى أنا الثكلى المكلومة . أيمكن أن تكون عديمة الاحساس ؟ كلا لقد عرفت من حساسيتها الشىء الكثير ، ولعل نظرة واحدة الى ذلك الوجه الجميل تقنع الناظر بالآلام التى تحاول اخفاءها .

كل المصائب التى توالت عليها لم تغير نوع ابتسامتها ، ولكن موت طفلها غير ملامح وجهها كلها . يا ليتها بكت ! ياليتها استطاعت أن تبكى !

وظلت نحو شهر فى صراع بين الحزن وبين طبيعتها المرحة الضاحكة ، تحاول بكل ما أوتيت من ارادة وعزم ان تتغلب على مصابها فتبتسم كما كانت تبتسم ، ولكن ابتسامتها أصبحت مبكية مؤلمة تبعث الشفقة والالم بعد أن كانت تبعث المرح والحياة .

لقد لازمت فراشها منذ أيام وكانت متعبة مريضة خائرة

النجـــــوم

للقصصي الفرنسي الفونس دوديه

عند ما كنت أرعى الماشية على جبل (الليبرون) كنت أقضى أسابيع طويـــلة لا أبصر فى خلالها مخلوقاً حياً غير كلبى (لابرى) وقطيعى فى المرعى ، وقسيس جبـــل (الاور) وبعض عمال (البيامون) مارين من هناك فى سبيلهم ، تلك الجماعة التى أخرستها الوحدة وشغلتهما عن تسقط أخبار قرى الساحل ومدنه . ولهذا كنت أشعر بالسعادة تمر بى كلما سمعت رنين أجراس بغلنا ـــ آتيا يحمل الى الزاد كل خمسة عشر يوما ـــ مرة مع أجيرنا ومرة مع عمتى . فكنت أتلقى منهما أخبار البلد من تعميد وزواج وغير ذلك ، وأهتم خاصة بما آلت اليه ابنة سيدى الآنسة ستيفانيت ، هذه الآنسة التى فاقت أترابها بجمالها الفاتن ، وأستفهم بلباقة عما اذا كانت تكثر من حضور الحفلات العامة او قضاء الليالى الراقصة ، وهل تقدم الى خطبتها أحد . كل ذلك كنت أقف عليه دون أن أترك لمحدثى سبيلا يلحظ منه هذا الاهتمام البالغ ، ومن يسألنى الآن لماذا كانت تعنينى هذه الأمور أجبه بأنى شاب فى العشرين من عمرى وان الآنسة ستيفانيت أجمل فتاة رأيتها فى حياتى

وفى ذات مرة كنت أنتظر الزاد يوم الأحـــد فتأخر عن موعد وصوله ، فحملت ذلك فى الصباح على « حفلة القداس الكبير » وفى الظهر على ان الدابة لم تستطع متابعة سيرها لرداءة الطريق بعد هبوب العاصفة الشديدة ، وفى الساعة الثالثة بعد الظهر تماما ، بينما الجو فى صفاء أديمه ، والجبل يرفل فى حلته اللؤلؤية . وخرير المياه يشنف أذنى . سمعت رنينا مطربا كأنه رنين الناقوس فى عيد الفصح . فتحققت ان الدابة التى أنتظرها آتية . ولما تبينتها ملياً لم ار معها لا الأجير ولا العمة وانما رأيت عليها . . . أتعرف من ! . . . آنستنا ! نعم آنستنا ستيفانيت نفسها . فقد شاهـــدتها منتصبة على ظهر البغل بين السلال . موردة الوجنتين كأن نقاوة الهواء وطراوة الجو بعثتا فى وجهها الحياة .

وقبل أن تطأ قدماها الارض أخبرتنى أن الاجير المسكين مريض لا يغادر فراشه ، وأن عمتى (نوراد) غائبة منذ أيام عند أبنائها . ولما سألتها عن سبب ابطائها اجابت « انى ضللت الطريق » ولكن من يبصرها فى أبهى زينتها ، بشريطها الحريرى المغطى بالزهر ، وردائها اللماع المطرز الحواشى ، يحكم بأنها كانت تلهو بالرقص ـ لا بالتفتيش عن الطريق بين الادغال .

آه ما الطف هذه المخلوقة التى لم تملها عيناى وما أجملها ! كنت بالامس أشاهدها أحيانا فى الشتاء وانا عائد فى المساء من الحظيرة الى المزرعة لاتناول طعامى ، فكانت تدخل غرفتها وهى فى زينتها وكبريائها دون أن تكلم أحدا من الخدم . . . . حينئذ علمت أنى ما تأملتها من قبل فى مثل هذا القرب . وبعد أليست الآن واقفة أمامى فى هذه الخلوة التامة فلم لا أعانقها ؟

ولما أفرغت (ستيفانيت) السلال أخذت تتأمل كل ما حولها باهتمام ، ثم نزعت ثوبها الفضفاض ـ الذى لا ترتديه الا أيام الآحاد ـ خوفا عليه من التلف ، ودخلت المراح تريد ان تشاهد المكان الذى انام فيه ، وفراش القش المغطى بفروة الخروف ، ومعطفى الضخم المعلق على الجدار ، وهراوتى الغليظة ، وبندقيتى العتيقة . فكان فى هذه الاشياء مسلاة لها .

ـــ اذن أنت تقضى أيامك فى هذا المكان أيها الراعى المسكين ؟ لابد أن تكون قد مللت الحياة فى هذه الوحشة وتلك العزلة ! والا فقل لى ماذا تفعل ، وفيم تفكر ؟

فهممت بأن أجيبها : « انى أفكر فيك يا سيدتى » كما هو الواقع ، ولكنى كنت فى حالة اضطراب شديد ، فلم أجد كلمة واحدة أقولها لها . ولما توسمت وجهها لاحظت أنها شعرت بما يجول فى خاطرى ، وكانى بها أرادت ان تزيد فى حيرتى وتلعثمى لتتلذذ فى قرارة نفسها ، فقالت :

ـــ وصديقتك العنزة الذهبية اللون ، هل تزورك احيانا ؟ أنا لا أشك فى اخلاص هذه الشيطانة التى لا يلذ لها الجرى الا على

الاعصاب فذهبت اعودها يوماً فلم أجد بالدار أحداً ، سألت عنها مرتاعة ، وأخيراً علمت أنها فارقت الحياة امس مساء ، سألت ماذا حل بها وأى أمر جديد انتابها ؟ فعرفت انها لم تصب بشىء جديد ، وانما فارقت الحياة وكانها الشمعة تحترق . فارقتها شيئاً فشيئاً وقد لاقت ربها وعلى فمها ابتسامة رضـا وطمأنينة ، مر اذ ذاك بخاطرى قول الشاعر الامريكى برانيت ، ذلك القول الذى كانت تردده أثر كل فشل أو مصاب ، والذى ظلت تردده كثيراً فى آخر أيامها : « هكذا عش ، حتى اذا ما نادى منادى الموت لا تسر اليه كالعبد مسوقاً الى سجنه ، بل سر اليه بايمان ثابت ، وطمأنينة تامة كمن يسحب غطاءه عليه ليستسلم الى حلم عذب جميل . »

رءوس الجبال . . . .

ولكن ستيفانيت نفسها بوجهها الضحوك ، ورأسها المنحنى ، واسراعها فى العودة اسراعا كاد يجعل زيارتها اغماضة عين ، كانت أشبه بهذه الشيطانة المذكورة .

— استودعك الله أيها الراعى .

— سلاما يا سيدتى .

ولم اتم جوابى حتى كانت فى طريقها وليس معها غير سلالها الفارغة . ولما اختفت عن ناظرى فى المنحدر خلت انّ الحجارة المتناثرة من حوافر الدابة كانت تقع على قلبى واحدة بعد واحدة .

ومع أنها أصبحت بعيدة عنى فقد ظل صوت الحجارة المتناثرة يدوى فى أذنى . وبقيت حتى ازف المساء كأننى فى غفوة لا أتحرك من مكانى خوفا من ان يتبدد هذا الحلم اللذيذ . ولم أصح الا على صوت ينادينى من السفح . وكان الليل بدأ يرخى سدوله والقطيع أخذ يزاحم بعضه بعضا ليدخل الحظيرة . وبينا انا أفتش عن مكان الصوت ظهرت أمامى فجأة الآنسة ستيفانيت . ولكن بغير الهيئة التى قابلتنى بها فى المرة الأولى . قابلتنى وهى ترتجف من البرد والخوف ، وأثوابها مبللة ، فعلمت حينئذ ان فيضان نهر (السورغ) فى الوادى بعد تلك العاصفة الشديدة اخذ عليها الطريق ، فخافت على نفسها ان هى اجتازته . والأغرب من ذلك انها ساعة ودعتنى ما كان يجب عليها أن تفكر فى الرجوع الى المزرعة ، وما كان بامكانى ان أترك القطيع وحده لأرافقها فى طريقها الوعر ،

ويظهر ان فكرة الأقامة هذه الليلة فى الجبل كانت تزعجها ولا سيما عند ما كانت تفكر فى قلق أهلها عليها . فكنت أهدىء من روعها واطمئن بالها بما أستطيع اليه سبيلا . واذكر أنى قلت لها ان ليالى يوليو قصيرة ، وان السماء يصفو أديمها بعد حين .

وأشعلت النار بسرعة وأخذت ادفىء قدميها وأجفف أثوابها . ثم قدمت لها شيئا من الجبن والحليب . ولكنها لم تكن لتفكر فى الدفء ولا فى الأكل تلك الساعة ، واسترسلت فى النحيب حتى كدت ابكى لبكائها .

ولما ارخى الليل سدوله تماما ولم يبق على قمة الجبل غير شعاع حائل من الشمس ، والا قطفة من نور فى حواشى الافق ؛ امسكت بيد الآنسة وأدخلتها المراح لتستريح ، فتمددت على فروة ناعمة الصوف كنت قد فرشتها على القش الطرى ، ثم خرجت من عندها لأجلس لدى الباب متمنيا لها ليلة سعيدة . . .

ويشهد الله انى لم تخامرنى فكرة سيئة قط ، بالرغم من نار الحب المتأججة فى دمى . ولكنى كنت فخورا جداً لأن فى زاوية من المراح تنام فى حراستى ابنة سيدى ـ كأنها نعجة اثمن من تلك النعاج التى ترمقها بنظرات الاهتمام وأشد منها بياضا .

والحق يقال انى لم أر السماء من قبل بمثل هذا الصفاء الذى رأيتها به فى تلك الليلة . ولا النجوم بمثل هذا النور الساطع الذى كانت ترسله . .

وفجأة فتح باب المراح : وظهرت منه ستيفانيت . فالغنم كانت تزعجها بأصواتها فتمنع عنها لذة النوم . لذلك أحبت أن تأتى قرب النار . ولما لاحظت منها ذلك وضعت معطفى على كتفيها وأرّثت النار ثم أدنيتها منى . وبقينا مدة جالسين جنباً الى جنب لا نجد حديثا نفتحه ولا حادثا نشرحه .

ويعلم الذين قضوا بضع ليال فى الفلوات ان عالما خفيا يهب من سباته ساعة ينام الانسان فى هذا الانعزال التام والسكون العميق ، فى هذه الساعة تستيقظ الطبيعة . فالينابيع تغنى بصوتها العذب . وترسل المياه الراكدة بريق لألائها السماوى . وتأخذ الاشباح تروح وتجيء ، وترتفع فى الهواء أنغام خفية وأصوات كالحفيف ، وكأن الأغصان أخذت تمتد والاعشاب تنمو . فالنهار يعطى الحياة للمخلوقات الحية ، أما الليل فيعطيها للاشياء الميتة . وهذا مما يرعب الانسان إذا لم يكن له به سابق عهد أو عادة . . ولهذا كانت الآنسة ترتجف أبداً من الخوف ، وتلتصق بى كلما سمعت صوتا كأنها طفلة صغيرة .

وفى ذات مرة تعالت جلبة محزنة من المستنقع فى الوادى وارتفعت الينا تموجاتها مع الأثير . ثم رأينا شهابا جميلا يهوى فوق رأسينا من عل ويتجه نحو ذلك المستنقع كأن الضجة التى كرهنا سماعها تحمل معها بارقة خير . فسألتنى ستيفانيت :

ـ ماذى جرى ؟

— نفس دخلت الجنة ياسيدتى .

فرسمنا الصليب على صدرنا ثلاثا وبقيت هى تنظر الى السماء بنفس مطمئنة ، ثم قالت :

— أصحيح مايقال عنكم معشر الرعاة انكم سحرة ؟

— لا ياسيدتى ، إنما نحن أقرب هنا الى النجوم من سكان السهل ، ولذلك فنحن أكثر منهم علما بما يجرى فيها .

ثم وضعت يدها على فودها وقالت :

— ما أكثر هذه النجوم وما أجملها ! أنا فى حياتى ما رأيت هذا المنظر . . . . هل تعرف أسماءها أيها الراعى؟

— نعم أيتها الآنسة . . . . أنظرى ! فوق رأسينا تماما ترين « طريق سان جاك » (المجرة) الممتدة من فرنسا الى اسبانيا ، تلك الطريق التى اختطها (سان جاك دى غاليس) لبرى الفاتح العظيم (شارلمان) سبيله عند ما كان يحارب « العرب » وعلى

مسافة منها ترين محفة الأرواح (بنات نعش الكبرى) بأقطابها الأربعة الساطعة . وعلى مقربة منها « الحيوانات الثلاثة » . والنجم الصغير المقابل للثالثة هو « السائق » ؛ وانظرى من حولها هذه النجوم الهاوية ، إنها النفوس التى لم يقبلها الخالق فى جنته . . . . وتحتها بقليل ترين « المشط » أو « الملوك الثلاثة » (الجوزاء) التى نستعين بها على معرفة الوقت . فيكفى ان القى عليها نظرة واحدة لاتأكد أن نصف الليل قدانقضى . وعلى مسافة منها للجنوب يلمع «جان دى ميلان» سراج الكواكب كلها (الشعرى اليمانيه) واليك الحكاية التى يرويها الرعاة عنها :

فى ذات ليلة دعيت الشعرى اليمانية و « الملوك الثلاثة » والثريا الى حفلة زواج احدى صديقاتها النجوم . فتقدمت الثريا رفيقتيها وانطلقت حتى استقرت فى أعالى طبقات الجو كما ترينها ؛ ولحق بها « الملوك الثلاثة » بطريق أدنى ؛ أما الكسول « جان دى ميلان » فقد أخره نومه عن اللحاق بها ، فاغتاظ ورماها بعصاه ليقفها فى مكانها . ولهذا يطلقون أحيانا اسم «جان دى ميلان» على « الملوك الثلاثة » :

ولكن أجمل النجوم وأكبرها قدرا « نجمة الراعى » التى تنير لنا الطريق فى الفجر عندما نخرج بالماشية الى المرعى ، وفى المساء عند ما نعود بها الى الحظيرة . ونسميها أيضا « ماغلون » وهى الجميلة التى تمشى دائما إثر « بيير دى بروفانس » (زحل) لتتزوج به كل سبع سنوات مرة واحدة .

ـ ماذا تقول ! وهل من زواج عند النجوم ؟

ـ نعم أيتها الآنسه

ولما أخذت أشرح لها محور هذا الزواج احسست بشىء ناعم يثقل على كتفى فى لطف ورقة ؛ فنظرت فأذا برأسها الناعس متكئا على ، واذا بشرائطه الحريرية وتخاريمه اللطيفة وشعره المجعد تلك بى الى ان بدأت الكواكب تصفر فى سمائها ، وأخذ ضوء الفجر ينبثق فى الافق البعيد ليمحو أثرها . اما انا فكنت أتأمل الفتاة النائمة بشىء من الحزن الخفيف . لا أفكر فى هدأة الليل وصفائه إلا بكل ما هو جميل وشريف . وعلى جوانبنا تتابع النجوم سيرها ببطء وسكوت كأنها قطيع من الغنم . وبين الفينة والفينة كنت أشعر ان ألطف وأجمل نجمة كانت قد أضلت الطريق فهبطت الى كتفى فنامت عليه بهدوء . . . .

كيفون (لبنان) محمد كزما

بليـــاس ومليزاند

للفيلسوف البلجيكى موريس ماترلنك

ترجمة الدكتور حسن صادق

(تابع)

اركل — من القادم ؟

جنفييف — انه بلياس وفى عينيه أثر البكاء

اركل — هذا أنت يابلياس ؟ اقترب منى حتى أراك فى النور

بلياس — تسلمت ياجدى رسالة من صديقى مارسيلوس فى الوقت الذى تسلمت فيه كتاب أخى . . . إن هذا الصديق العزيز على يعانى ألم الاحتضار . وهو يستقدمنى إليه ليرانى قبل أن يفارق العاجلة . ويقول فى رسالته إنه يعرف بالدقة اللحظة التى سيموت فيها ، وإنى أستطيع الوصول إليه قبل حلول تلك اللحظة إذا شئت . إنى ذاهب اليه فى الحال .

اركل — يجب عليك أن تنتظر قليلا ، على الرغم من ذلك إننا لاندرى ماذا تعده لنا عودة أخيك . ثم هل نسيت أن أباك ملقى على فراشه فى الغرفة التى فوقنا ، وقد شفه الداء وبراه السقم ؟ أليس من الجائز أن يكون أشد مرضا من صديقك ؟ ومن أولى برعايتك وعطفك ، الوالد أم الصديق ؟ (يخرج)

جنفييف — لاتنس أن تشعل المصباح الليلة يابلياس

« يخرجان متفرقين »

المنظر الثالث

(أمام القصر . تدخل جنفييف ومليزاند)

مليزاند — ماهذا السكون المعتم الذى يخيم على الرياض ؟ إنه يدخل على النفس الرهبة والاكتئاب ! وماهذه الغابات الكثيفة الجاثمة حول القصر ؟ !

جنفييف — لما وطئت هذا المكان أثار هذا المنظر العجب فى نفسى وأخذ منها مأخذا شديدا . إنه رائع مخوف يغرق كل من رآه فى التأمل العميق . توجد أمكنة لايرى الانسان فيها نور الشمس ولا ضوء القمر ، فاذا ما طال مقامه بها ألفها واطمأن اليها . . . قضيت فى هذا القصر الموحش أربعين عاما أوتزيد قليلا . . . لو نظرت إلى الناحية الأخرى لرأيت نورا ينبعث من ماء البحر

مليزاند — أسمع حركة قريبة منا

جنفييف — نعم . أحد الناس يسير نحونا . . . آه ! إنه بلياس . . .

مايزال التعب باديا فى أسارير وجهه وفى خطواته المتثاقلة ... لقد انتظركما طويلا

مليزاند — إنه لم يرنا

جنفييف — أعتقد أنه رآنا ، ولكنه لايعرف مايجب عليه عمله، بلياس ، بلياس ، أهذا أنت ؟

بلياس — نعم . إنى آت من شاطىء البحر .

جنفييف — ونحن أيضا كنا نبحث عن مكان ينعم بشىء من النور ، ولكننا لم نجد مكانا أقل ظلمة من هنا . كنا نرجو أن نجد البحر منيرا فألفيناه قاتما مكفهرا ...

بلياس — ستهب الليلة عاصفة كما هبت من قبلها عواصف فى الليالى القليلة الماضية ... ومع ذلك أرى الجو هادئا فى هذا المساء، والسماء مصحية والبحر ساكنا لاتعروه رعدة ولاتعلوه موجة ، قد يركب البحر الليلة إنسان وهو مطمئن الخاطر مثلوج الفؤاد ، حتى إذا بعد عن الشاطىء ، دهمته العاصفة ،وحطمت السفينة، وابتلعه اليم فى جوفه ...

مليزاند — أرى شيئا يخرج من المرفأ

بلياس — لابد ان يكون هذا الشىء سفينة كبيرة .. الانوار عالية ، وسنرى السفينة بعد قليل حينما تبلغ الموضع الذى فيه أشعة الضوء

جنفييف — قد يحجبها عن عيوننا الضباب الراقد على سطح البحر فلا نراها

بلياس — كأنى بالضباب يعلو فى دءوب وبطء ...

مليزاند — نعم ... أرى الآن على البعد نورا ضئيلا لم أره قبل ذلك .

بلياس — هذا هو ضوء منارة ... ، توجد منارة أخرى لم نرها بعد

مليزاند — بلغت السفينة الحيز المضىء ... انها الآن بعيدة عن الشاطىء

بلياس — إنها تبتعد مسرعة وقد نشرت كل شراعها .

مليزاند — وهى التى جازت بى الى المرفأ ... ان لها شراعا كبيرا أعرفه حق المعرفة

بلياس — سيباغتها الليلة هياج البحر !

مليزاند — ولماذا أقلعت فى هذا المساء ؟ ... اختفت عن الأبصار أو كادت . قد تحل بها كارثة فى وحشة الظلام !

بلياس — الليل يبسط على الكون ظلمته فى سرعة غريبة (سكوت)

جنفييف — حان الوقت لدخول القصر . بلياس ، دل مليزاند على الطريق . إنى ذاهبة لأرى (اينيولد) الصغير وأمكث بجانبه بعض لحظات (تخرج)

بلياس — لم أعد أرى شيئا على سطح البحر :

مليزاند — أرى أنوارا أخرى ..

بلياس — إنها المنائر الأخرى ... أتسمعين صوتا يأتينا من البحر ؟ إنه زفيف الرياح وقد مسحت عن عينيها فتور الكرى ... هاتى يدك ... الطريق من هنا

مليزاند — أنظر ... أنظر ... فى يدى أزهار كثيرة !

بلياس — أعتمدى على ذراعى ... ان الطريق كثيرة الالتواء شديدة الانحدار ، والظلام حالك متكاثف ... فى نيتى الرحيل غدا

مليزاند — أوه ! لماذا تنتوى الرحيل ؟ (يخرجان)

الفصل الثانى

المنظر الأول :

(عين ماء فى الحديقة . يدخل بلياس ومليزاند)

بلياس — تجهلين دون ريب هذا المكان الذى قدتك اليه .. انى أفزع اليه فى كثير من الأوقات فرارا من شدة القيظ ..الحر خانق اليوم ، حتى تحت ظل الشجر !

مليزاند — أوه ! الماء صاف !

بلياس — وهو بارد منعش كعهدى به أيام الشتاء ... هذه عين ماء عتيقة أهملت منذ زمن بعيد ، وأظنها كانت تأتى بالمعجزات ... كانت تشفى الأعمى ولذلك مايزال الناس يطلقون عليها « عين العمى »

مليزاند — ولم تعد تنتج هذا الاثر ؟

بلياس — من يوم أن ضعف بصر الملك وشارف العمى لم يعد يتردد على العين أحد

مليزاند — ما أثقل الوحدة على صدر الانسان فى هذا المكان! إنى لاأسمع فيه حسا ولا ركزا !

بلياس — السكون التام الغريب يألف هذا المكان فى كل حين ويستطيب صحبته فى كل آن ... أنظرى الى الماء ، إنه فى سبات عميق ... اجلسى إذا شئت على هذا المرمر الذى يحيط بالعين ... فوق رأسك شجرة الزيزفون لاتخترقها أشعة الشمس

مليزاند — سأرقد على المرمر ... إن شوقاً ملحاً يدفعنى إلى رؤية القاع

بلياس — لم ير قط ... قد تبلغ العين فى عمقها البحر

مليزاند — قد يرى الانسان قاعها اذا وضح فيه شىء يلمع

بلياس — لاتنحنى هكذا !

مليزاند — أرغب فى لمس الماء

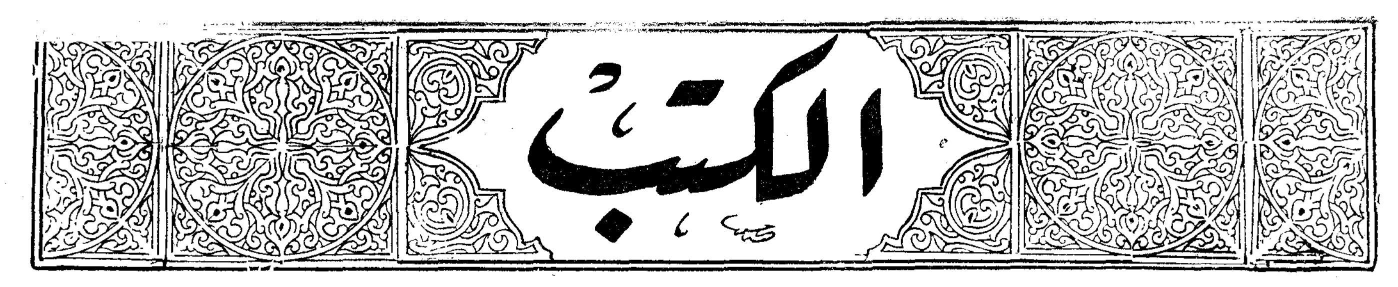
« يتبع »

لغو الصيف

« بقية المنشور على صفحة ٦ »

كورتلين اليه ، وأى سبب بين هذا الشاب المصرى وهذا النابغة الفرنسى؟ قال : بينهما سبب لا أدرى الآن ماهو ، ولعله إن صدقت الظنون وتحققت الآمال أن يكون التفوق والنبوغ ، ولعل الله قد أذن لمصر أن يكون فيها كورتلين كما كان في فرنسا . قالت : فانى لا أحب الاطالة ، ولا أحب الالتواء ، فأوضح وأبن عما تريد . قال توفيق الحكيم يا آنسة شاب مصرى ، ظهر فجأة بقصة تمثيلية أنت أحد أشخاصها . قالت: أنا أحد أشخاصها ! ماذا تقول؟ قال: نعم! لأن أشخاصها أهل الكهف ، ولست أريد أن أطيل فى تقريظ هذه القصة. وانما أقول إنى قرأت فى هذا العام قصصا تمثيلية كثيرة ظهر بعضها بالفرنسية ، وبعضها بالانجليزية ، وبعضها بغير هاتين اللغتين . وترجم اليهما أو الى إحداهما ، فكانت قصة أهل الكهف هذه خير ما قرأت من هذه القصص كلها وأحسنها موقعا من نفسى ، وأشدها إثارة لاعجابى . ولست أدرى أمعجب أنا بموضوعها أم بأسلوبها السهل، أم بألفاظها الساذجة أم بتحليلها الدقيق أم بهذا كله ، ولست أشك فى أن إعجابى بها سيضاعف منذ اليوم لأنك أحد أشخاصها . ومن يدرى لعلك پرسكا التى صورها توفيق الحكيم ! قالت: وقد ضاقت بهذا المزاح: لو كنت پرسكا لما جهلت مبدعى! قال: كم بين الناس يعرفون مبدعهم؟ قالت: وقد كتب صاحبك هذه القصة باللغة العامية ؟ قال: لا، بل بلغة لا تبعد كثيراً عن العامية. وليست هذه القصة هى التى ذكرت حين تحدثنا عن كورتلين ، فان لتوفيق الحكيم قصة أخرى غير تمثيلية سماها عودة الروح . والغريب أن أهل الكهف ظفرت أول الامر باعجاب الشباب والشيوخ جميعا . فلما ظهرت عودة الروح تنكر لها بعض أعلام البيان فى مصر ، ودعا هذا التنكر بعضهم إلى أن يراجعوا إعجابهم بأهل الكهف فيخففوا منه ويقتصدوا فيه . اما الشباب فاضافوا إعجابا إلى إعجاب . ورضى الى رضى وبدؤا يتخذون هذا الكاتب الشاب قدوة لهم ومثالا. قالت: وماذا ينكر أعلام البيان من عودة الروح ؟ قال لغتها ، فهى ككتاب كورتلين أبطالها شعبيون فينطقهم المؤلف بلغة الشعب، ولعله يغرق فى ذلك بعض الشىء ، واعلام البيان يكرهون ذلك ويحرصون على الا تظهر آيات البيان الا فى اللغة الفصحى، وهم يضنون بهذا الشاب على أن ينفق جهده الخصب ويضيع وقته العزيز فى هذه اللغة المبتذلة ، قالت: ولكن القصة نفسها ما رأيهم فيها؟ فليست القصة ألفاظا خالصة ولا معانى خالصة، وانما هى قوام من الالفاظ والمعانى ، ولا بد من أن يستقيم لها جمال اللفظ وجمال المعنى ، فهب ألفاظها رديئة عند أعلام البيان فما حكمهم فى معانيها ؟ قال: قرأها بعضهم فلم يظهر رضى ولا سخطا ، ولم يستطع بعضهم الآخر أن يقرأها فعابها لأن لغتها العامية صرفته عن قراءتها . قالت :فهذا يخل بالانصاف وتجاوز للقصد، وقد شوقتنى الى أن اقرأ هذين الكتابين . ولكن هلا حدثتنى عنهما حين كنا فى القاهرة . قال ومتى حدثتك فى القاهرة عما كنت اريد أن احدثك عنه ، انما نلتقى فنمضى الاحاديث بيننا كما تريد هى لا كما نريد نحن ، ولولا أنى سألتك عن هذا الكتاب الذى تقرئين لما جرى بينك وبينى ذكر لتوفيق الحكيم ، وهل فرغنا من الحديث عن أنفسنا لنتحدث عن هذا الاديب الجديد . قالت كم كنت احب أن أظفر بكتابيه لأفر اليهما منك ومن نفسى فقد يخيل الى أنا نسرف فى الحديث عن أنفسنا ونغلوا فى الاعراض عن غيرنا . وقد يخيل الى أن بين هؤلاء الكتاب الناشئين من هم احق بعنايتك وعنايتى من هذا اللغو الذى نخوض فيه كلما التقينا . قال : وعلى ذكر كورتلين وتوفيق الحكيم ، ما رأيك فى هذا الكتاب الفرنسى الجديد الذى كثر الكلام فيه ، واختلف فيه أدباء فرنسا كما اختلف أدباء مصر فى كتاب توفيق الحكيم ؟ قالت: وماذاك أيضا ؟ قال ماذا ، ألم تقرئى كتاب سيلين الذى سماه سياحة فى آخر الليل ؟ ألم تقرئى ما كتب النقاد حول اللغة التى ألف فيها هذا الكتاب ؟ قالت لا، قال وهو يضحك: معذرة فقد أنسيت أنك نائمة ، وأنك من أهل الكهف . قالت : وقد رمته بكتابها مغيظة منه محنقة عليه : هبنى نائمة فما لك لا توقظنى وما اختلافك الى فى القاهرة، وما لزومك لى فى نيس، وما مرافقتك لى فى هذا القطار على كره منى. قال وقد أغرق فى الضحك : انما رافقتك فى القطار يا آنسة لأوقظك ، ولأخرجك من الكهف ، ولأنبئك بأن فى مصر شابا يقال له توفيق الحكيم كتب قصة يقال لها أهل الكهف ، وأخرى يقال لها عودة الروح . وبأن فى فرنسا أديبا جديدا يسمى نفسه سيلين، وقد أظهر كتابا «اسماه سياحة فى آخر الليل» اختلف الناس فيه اختلافاً كثيراً . قالت : فيم اختلفوا قال: فى لغته فهو أيضاً مسرف فى حب العامية ، وأنا معجب بكتابه اعجاباً شديداً، مبغض للغته بغضا شديداً لأنه يتعمدها تعمداً ولا تدفعه اليها الحاجة ولا الضرورة ولا الرغبة فى التصوير الصادق والتعبير الصحيح . وكل هذه الكتب عندى أستطيع أن أعيرك اياها لتقرئى وتحكمى ثم لنتحدث بعد ذلك . قالت : فابدأ بقصة أهل الكهف فأعرنى إياها منذ الآن فاسأنفق ليلتى بينها وبين كورتلين . قال: ولكن أليس خيراً منها ومن كورتلين ان ننفق ساعة أو بعض ساعة ؛ لا أقول فى الحديث فقد يظهر أنك سئمته وضقت به ، وانما أقول فى العشاء فانى اسمع جرس الخادم يدعو اليه ؟ !

طه حسين



النجـــوم فى مسالـكها

هذا هو النقد الذى بعث به الى الرسالة الأستاذ عبد الحميد سماحة منذ عددين . وكنا على وشك أن ننشره لولا أن رأيناه بروحه ومعناه منشوراً فى الاهرام بامضاء ناقد ، فلما كتب الأستاذ فى الاهرام أنه هو وزميله غير هذا الناقد الحاقد ، وأنه ينتظر ظهور نقده فى الرسالة ليعلن فى الكتاب جملة رأيه، نشرناه اليوم متبوعاً بتعليق للأستاذ الغمراوى حتى لا تحول بين علم الاستاذ وبين جهل المترجمين الذين أقروا الكتاب ! وحتى تهيء الفرصة لمن أحسنوا الظن بالاستاذ أن يوازنوا بين نقده وبين نقد (ناقد)

قال الاستاذ سماحة بعد المقدمة:

يبدو لى أن شخصية المؤلف كان لها تأثير شديد على المترجم فالتزم الترجمة الحرفية إلتزاما فى مواضع كثيرة شوهت من جمالها فى الأصل الأنجليزى وأخرجتها فى بعض الأحيان عن معناها الحقيقى حتى أصبح من الصعب فهمها دون الرجوع إلى الأصل الأنجليزى

مثال ذلك : ما جاء من الصفحة الثامنة (وعلى ذلك فلا أقل من ١٫٣٠٠٫٠٠٠ أرض يمكن أن يزج بها فى الشمس ، وفى الأصل الأنجليزى As a consequence no fewer than 1,300:000 earths could be packed inside the sun.

وما جاء فى صفحة ٧٤ (رأى السير إسحق نيوتن أن هذا الانحناء المستمر نحو الأرض فى مسار القمر إنما يعين أن الأرض تجذب القمر جذبا مستمرا)

وفى الأصل الأنجليزى صفحة ٦٩: Sir Isaac Newton saw that this continual earthward curving of the moon's path could only mean that the earth . . . etc.

وفى صفحة ٧٧ : (منذ عهد نيوتن برهنت الحقائق الفلكية فوق كل شك غير جزاف صدق ما نقرره) وفى الأصل الأنجليزى: Since Newton's day, the facts of Astronomy have proved beyond all reasonable doubt.

وفى آخر صفحة ٩٤ : (وليس هناك نواة تستطيع أن تقبض على كهاربها بقوة فى طوقها أن تصمد لمثل هذه الحرارة)

وفى رأيى أنها لو وضعت فى الصيغة الآتية لكانت أدل على المعنى المقصود : (وليس هناك نواة تستطيع أن تستبقى كهاربها فى أطواقها عند مثل هذه الدرجة العالية من الحرارة) وما جاء فى صفحة ١٠٧ : (ولما تكلمنا عن وجه السماء فى الفصل الأول لم تكن النجوم فى اعتبارنا إلا وراءاً بعيدا عن نقط ضوئية) فهنا أيضاً يكاد يكون المعنى غير مفهوم .

وفى صفحة ٤٢ فى آخر الفقرة الأولى جملة مكررة ليست موجودة فى الاصل الانجليزى (فالجو فى النجم يتدخل بالتدريج فى مادة النجم نفسها لأن النجم وجوه مصنوعان من مادة واحدة ، فالانتقال يتم تدريجا من مادة الجو الى المادة الاساسية للنجم نفسه لأن تكوينها واحد)

وفى صفحة ٥٥ وضع المترجم شرحا عن عطارد ذكر فيه أن رؤيته بمصر صعبة نسبياً ، والحقيقة أن رؤية عطارد ممكنه فى مصر .

أما ترجمة Size بقدر Magnitude بمرتبة ، فلا زلت على رأيى الذى كاشفته به قبيل إصدار الكتاب وهو أن النحت هنا غير جائز بالمرة إذ أن كلمة قدر هى اصطلاح فنى يدل على درجة لمعان النجم ويقابلها فى الأنجليزية Magnitude وكلاهما أقدم على الزمن من جينز ومؤلفات جينز وليس لمؤلف أو لمترجم ان يثور على الاصطلاح بغير ماسبب قوى وبمثل هذه السهولة، أما ما أشار اليه المترجم فى مقدمة صفحة ح من أنه راجع كتاب محمود باشا الفلكى لمعرفة أسماء النجوم والكوكبات العربية ، فالذى أعرفه أن محمود باشا ليس له مؤلفات باللغة العربية أو على الاقل فى هذه الناحية من البحث ، وأن الكتاب الذى يشير اليه الدكتور الكردانى هو كتاب «الدرر التوفيقية فى علم الفلك والجيوديزيه» والمؤلف هو اسماعيل بك مصطفى

الفلكي وليس محمود باشا، أما ما يصح أن نسميه تمصير الكتاب فقد نجح في ذلك المترجم الى حد كبير، وهو مجهود يستحق الثناء، فأكرر تهنئتي له وأشكره على ما نسبه لي في مقدمة الكتاب.

تعليق الأستاذ احمد محمد الغمراوى

أظن أهم ما فى نقد الأستاذ سماحة قوله ان الترجمة فى مواضع كثيرة حرفية شوهت من جمال الأصل وأخرجته فى بعض الأحيان عن معناه الحقيقى حتى أصبح من الصعب فهمها دون الرجوع الى الأصل. وهذا نقد لو صح لكان عيباً كبيراً فى الترجمة لا يمكن الاعتذار عنه بحال. لكن الأمثلة التى ساقها الأستاذ سماحة توضيحا لرأيه هذا تكفى فى ذاتها لنقضه. فقد ذكر أمثلة ثلاثة قرن فى كل منها الترجمة بمقابلها من الأصل وأشار فى كل إلى الموضع الذى لم يرضه من الترجمة والى ما يقابله. والذى لم يرضه فى كل مثال هو فى الغالب كلمة فى جملة، وهذا يقرب مسافة الخلف بيننا وبينه إذ لو كانت الترجمة حرفية بالمعنى الذى يزعم لكانت الجملة كلها محل اعتراض لا كلمة واحدة منها أو كلمتان فاذا رجعنا الى الكلمة أو التعبير الذى اعترض عليه لم نجد لهذا الاعتراض محلا. فالجمل العربية فى جميع الأحوال مفهومة الا لشخص لايعرف معنى مثل « يزج بها » و « شك غير جزاف ». ولم يدر بخلد المترجم ولا المراجع أن فى أى هذين التعبيرين ما يستغلق على أحد اللهم الا على تلميذ يكون من صالحه عندئذ أن يكشف أو يسأل عما استغلق عليه. ثم الجمل العربية فى جميع الأحوال ليست ترجمة للاصل حرفا بحرف بل فيها من التصرف قدر بسيط ينجيها من الحرفية المكروهة من غير أن يحرمها من الدقة.

على أنه يحسن بنا أن ننبه هنا الى أن الحرفية فى الترجمة ليست دائما مكروهة وانما تكره عندما يختلف الذوق فى اللغتين. فاذا اتفق الذوقان كما يحدث فى مواطن غير قليلة لم تكن الحرفية شيئا مكروها بل كانت مستحبة أو واجبة لأنها عندئذ تكون أسهل وأدق وأرضى للضمير الذى يطالب بالأمانة المطلقة فى الترجمة كما يطالب بالأمانة المطلقة فى النقل. فليس بعيب على مترجم أن يلتزم الأصل حتى فى التراكيب ما دام مثل هذا الالتزام لا يؤدى فى الترجمة الى ما يأباه ذوق اللغة المنقول اليها أو يخالف معنى الأصل المنقول عنه. وليس فى الأمثلة التى جاء بها الأستاذ سماحة ما يمكن أن يدل على أن الترجمة التى نحن بصددها فيها ما يخالف الذوق العربى أو يفيد معنى لايفيده الأصل الانجليزى. حتى الجملة التى قال انها مكررة فى صفحة ٤٢ تكررا ليس فى الأصل الانجليزى معناها نفس معنى الجملة التى قبلها وان اختلفت عنها كثيرا فى اللفظ. فلو كان هذا التكرار مقصودا من المترجم لكان فيه ما يشهد بأنه يذهب الى ماوراء الحرف بكثير اذا رأى ان توضيح المعنى يستدعى ذلك. لكن أكبر الظن أن الجملتين ترجمتان لجملة انجليزية واحدة كان يراد اختيار واحدة منهما فحال دون ذلك سهو أو شبهه ثم لم يفطن الى تكرار المعنى عند المراجعة لاختلاف التركيب من ناحية ولأن مثل هذا التكرار قد يلجأ اليه المؤلف لتوضيح أو لتوكيد

وكون الأستاذ سماحة قد فطن الى أن التكرار هنا غير موجود بالأصل يقظة منه محمودة من غير شك كنا نود لو أنها ساعفته حين أراد التعرض للجملة التى أخذها عن آخر صفحة ٩٤ فقد التبست عليه كلمة « طوق » بمعنى الوسع والطاقة بكلمة « طوق » بمعنى كل ما استدار بشيء، فاقترح الجملة التى يراها القارىء فى مكانها من نقده. ولو كان هذا هو المعنى المقصود لكانت الجملة هى المثل الوحيد الذى جاء به الأستاذ على سوء الترجمة، لأن الجملة تصبح مضطربة غير مفهومة لو كانت كلمة « طوق » فيها معناها مدار كما فهم الأستاذ سماحة وكما تدل عليه جملته التى اقترح. ولو أن الأستاذ تجشم مراجعة الأصل (١) فى هذا أيضا لتدارك قلمه قبل أن يفرط منه ما فرط أو لعل الأستاذ سماحة راجع الاصل واستباح مع ذلك ان يتصرف فى ترجمته هذا التصرف الغريب لانه من الآخذين بمذهب التصرف الواسع فى الترجمة. وهو مذهب له أنصاره لسهولته ولأنه يحل شخصية المترجم محل شخصية المؤلف. ولعل هذا هو السر فى أن الأستاذ سماحة عاب على المترجم ان سمح لشخصية مؤلف كتاب « النجوم فى مسالكها » بالتغلب على شخصيته. ولو كانت المسألة مسألة مغالبة بين شخصيتين لكان هذا عيبا لكننا

---

(١) الاصل الانجليزى للجملة هو :

No nucleus can grip its electrons strongly enough to defy such heat as this.

نفهم واجب المترجم على عكس ما يفهم الأستاذ ، نفهمه على أنه جهاد فى سبيل إظهار شخصية المؤلف كما تتجلى فى كتابه ، وإخفاء شخصية المترجم تماما إن أمكن . وأكبر صعوبة الترجمة كما نراها هى فى ذلك الأظهار وهذا الأخفاء ، إذ ليس من السهل أن يتخلى مترجم عن شخصيته ويجتهد فى تقمص شخصية مؤلف مكانها ليخرج للناس ترجمة تكون فى اللغة المنقول اليها مثل الأصل فى اللغة المنقول عنها . هذا مثل أعلى فى الترجمة يقترب الأنسان منه كما يشاء من غير أن يبلغه . ويظهر أن الدكتور الكردانى قد نجح فى الاقتراب منه الى حد أن التبس الأمر على الأستاذ سماحة فظن المسألة مسألة شخصية غلبت شخصية ، وما هى الا مسألة مبدأ فى الترجمة قائم على الأمانة والتضحية قد أفلح الأستاذ المترجم فى اتباعه وتوخيه

بقيت الملاحظتان الفلكيتان اللتان ذكرهما الأستاذ سماحة . فأما مسألة قدر ومرتبة فأنا نظن الحق معه فيها ، وان كان هذا ليس معناه أن يحرم مثل الاستاذ الكردانى من ابداء رأيه بصورة عملية فى مسألة مصطلح من مصطلحات لم يستقر الناس فيها بعد على قرار . وأما مسألة رؤية عطارد فان القول الذى كان قاله الدكتور الكردانى من أنها صعبة نسبيا لا ينبغى انها ممكنة كما يقول الاستاذ سماحة . ولعله يحسن هنا انصافا للاثنين أن نقول ان الدكتور الكردانى أراد أن يستوثق من الامر فسأل الاستاذ سماحة فكان رأيه أن رؤية عطارد غير ممكنة فى مصر ، فراجعه فى ذلك حتى اتفقا على أن خير تعبير هو « صعبة نسبيا » ، وقد غيره الدكتور الكردانى بعد الى « سهلة نسبيا » . فاذا كان الاستاذ سماحة يخبرنا الآن أن رؤية عطارد ممكنة يريد سهلة فمرحبا بخبره ، لكن كان الاولى أن يقول سهلة ان كان هذا مراده فان لم يكن هذا مراده فقد أقر الرأى الاول ولم يكن فى ملاحظته فائدة للناس

وأما مسألة الفلكى باشا فهو اسماعيل مصطفى باشا لا محمود باشا ، فملاحظة الأستاذ سماحة هى فى صميمها حق ، الا فى ما تفيده من أن المترجم قال انه راجع محمود باشا الفلكى فان ماقاله المترجم فى مقدمته لا يفيد الا انه خالف من غير أن يستلزم انه راجع . وعلى أى حال فان معلومات المترجم التى نسبها للفلكى باشا فى صلب الكتاب هى كما أذن لنا المترجم أن نقول مأخوذة كلها عن الاستاذ سماحة وان سماه الاستاذ سماحة اسماعيل بك وسمته نسخة دار الكتب للدرر التوفيقية اسماعيل مصطفى باشا . وهذه كانت احدى أيادى الاستاذ التى نوه بها الدكتور الكردانى فى مقدمته وأراد أن ينوه بها بصورة عملية فطلب اليه أن ينقد الكتاب

وبعد فقد كنا نود لو قصر الاستاذ سماحة نقده على الناحية الفلكية التى هو من رجالها فأشبع فيها القول ، أما الناحية اللغوية فلها رجالها ، وكثير منهم من أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر التى تولت اخراج الكتاب ؟

جريدة « الشــــورى »

جاءنا من حضرة الاستاذ صاحب جريدة « الشورى » المحتجبة ما يلى :

قرأت فى الجرائد أن أحد أصحاب الصحف الاسبوعية بدمشق الشام قد غير اسم جريدته وسماها « الشورى » وقد ظن بعض اخوانى هنا وفى الخارج أن لى علاقة بهذه الجريدة التى اختارت اسما لا يخلو اختياره من ميل الى استغلال اسم جريدتى التى أصدرتها سبع سنين ثم حجبتها مؤقتاً الى أن يفرج الله عنها بمصر

لذلك أعلن هنا انه لا علاقة لى بجريدة « الشورى » التى صدرت بدمشق ولا أعرف عنها شيئاً .

مصر — محمد على الطاهر : صاحب الشورى

طبعت بمطبعة فاروق ٢٨ شارع المدابغ